بلاغة الطباق والمقابلة

معالم وتطبيق

دكتور/ محمد علي أبو زيد

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ
الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الفَاتِحَة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي فضل العربيه بإنزال كتابه المعجز بها تبياناً لكل شيء، والصلاة والسلام على أفضل وأفصح العرب رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين والعاملين بسنته إلى يوم الدين .

وبعد ..

فمما هو كالمعلوم أن لفظ البديع قد صار إلى حال حين يذكر تتداعى إلى الأذهان أحوال خاصة يقوم عليها بناء الكلام ، وهذه المعاني المستدعاه بهذا اللفظ لاتكون في أكثر الأحيان في جانب الفن البلاغي الخالص، اذ يطرأ بإطلاق هذا اللفظ وسماعه تلك الوجوه والأحوال التي تأتي في الكلام أو يصار إليها لقصد تحسينه وتنميقه بما قد يعني أن ذلك تلفيق وتدليس في الكلام ، حيث يواري بتلك الوجوه عللاً فيه أو ضعفاً أو عوجاً إلى امثال تلك المعاني، ولولا إستجلاب هذه المحسنات وإلباسها للمعاني لانكشف حال الكلام وبان ضعفه وهزاله .

وذلك المفهوم في الحقيقة إنما هو يمثل طوراً خاصاً من اطوار التاريخ الأدبي كانت له احواله وملابسته في سياق عصره ، كما يمثل في الوقت ذاته مرحله معينة من مراحل الدرس البلاغي كان لها ماقد يسوغ او يبرر ايضاً، أما أن يستقر هذا المفهوم في الأذهان ويستمر هكذا على نحو من التعميم والإطلاق فغير مفهوم وغير مسلم ، فإن هذا فيه مصادرة وتحكم،

فهو يعني أن تسود أفكار جيل ونتاج عصر بذاته وأن يغفل أو يهمل افكار ونتاج اجيال وعصور اخرى سابقة ولاحقة ، ثم من بعد ذلك ومن قبله يجافي النموذج الأعلى للبلاغة والإعجاز حيث ورد فيه ضروب من البديع كما هو وارد فيه مسائل المعاني وطرق البيان، وهذا ظلم بين للعلم وافتآت على الحقيقة وتغاضي عن الصواب .

فمن الثابت في عرف اللغه والأستعمال أن لفظ البديع يطلق على المخترع والمبتكر والموجود على غير مثال سابق، كما هو معلوم في عرف الاستعمال الأدبي وفنون القول أن هذا اللفظ يراد به الطريف كما يعني من الكلام العجيب أو الغريب النادر، وقد استعمل اللفظ مرادا به تلك المعاني على هذه الضروب من طرق التعبير والتي شاعت في كلام الشعراء العباسيين أمثال مسلم بن الوليد وأبي تمام حيث وردت صور عديدة من نحو الأستعارات وفنون الطباق والجناس على نحو فاقوا الشعراء قبلهم فقد كانوا لايعنون بأن تأتي هذه الضروب على هذا النحو من الإتساع والكثره بل ترد في اشعارهم أو كلامهم دون قصد او تكلف .

وقد بنى العلماء والنقاد فهمهم ودراساتهم للبديع في العهد الأول على هذا المعنى والأعتبار، حيث نجد بن المعتز ويعد اول من خص البديع بمؤلف ، يذكر ان هناك فنونا عني المحدثون بها من نحو الاستعارة والطباق والجناس.. إلى أخره ، ثم كانت دراسات صاحب الموازنة وصاحب الوساطة تقوم ايضا على هذا الاعتبار إلى أن جاء عبد القاهر وقد وجد أن بعض الناس يكادون يصرفون عنايتهم إلى جانب اللفظ بما قد يدل أو يفهم معه إغفال جانب المعنى فحرض وشدد على إثبات ان مرد الحسن إنما هو إلى المعنى لا إلى اللفظ حيث ان العناية بأمر اللفظ على حساب المعنى تؤدى إلى

ان يصير الكلام زخرفا من القول وزينة لاأثر له في النفس حيث لايحمل فائدة او يحقق غرضا ، صحيح ان عبد القاهر لم يتوسع في دراسته لألوان البديع، ولم يفصل القول فيها تفصيلا، ومرد ذلك فيما نفهم إلى أن هذا لم يكن في غرضه الذي قصد إليه فيما كتب من فصول في البلاغة ودلائل الإعجاز ، ولكنه على كل حال لم يهمل تلك الضروب إهمالا، وإنما استعان ببعض منها كالتطبيق والتجنيس على إثبات رأيه فيما يتصل بأمر المعاني ورجوع المزية إليها ، وقد وجد في ذلك خير تدليل وبيان للوصول إلى ماأراد، ثم جاء من بعد الزمخشري وقد كان من غرضه ابراز خصائص النظم القرآني ومافيه من أسرار وقد بذل جهدا موفقا في هذا الشأن ، فقد كان تفسيره من خير ماكتب في هذا الباب .

وليس صحيحا كما يظن او يشاع من أن صاحب الكشاف لايعني بصور البديع، بل هو يغض من قيمته ، ويستشهدون على ذلك بإثبات كلام له في بعض المواقع .

نعم إن الزمخشري قد عني عناية واضحة بتفسير المسائل التي تعود إلى علمي المعاني والبيان ، لكن الحقيقة أيضا أنه قد عرض لكثير من مواقع البديع وصوره كالطباق والمقابلة واللف والنشر والجناس إلى نحو ذلك ، وكانت له تحليلات وأشارات دالة ومهمة في باب الدرس البلاغي، وأما ماقد نقع منه على كلام يفهم منه الغض من قدر بعض فنون هذا العلم فقد كان ذلك في سياقات خاصة تسوغ القول بما قال به .

ثم جاء من بعد السكاكي ليتبع موضوعات علمي المعاني والبيان ببعض من صور البديع ذكر أنها يقصد إليها لغرض التحسين ، ففهم من ذلك الخطيب أن رتبة هذه الوجوه متأخرة ، ومن هنا خصها بعلم جعله تاليا لعلم

البيان وعرفه بما يفيد ان تلك الألوان إنما تأتي لغرض تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة .

ثم جاء الشراح وأصحاب الحواشي وقد طبعت دراستهم لهذا الباب بالطابع العام المميز لطريقتهم في البحث ، حيث كانت الدراسة تميل إلى الجانب النظري والجدلي المنطقي والذي يبعد في كثير من الأحيان عن الاعتبار الذوقي والذي هو من اخص خصائص الفن البلاغي .

وعلى كل حال فقد استقر لدى علماء تلك المرحلة ، او اكثرهم أن الفن البديعي يصار إليه للتحسين وأن هذا التحسين كأنه أمر عرضي يمكن ان يستغنى عنه الكلام في كثير من الأحيان، او لايعد شرطاً في باب البلاغة، ومع ان هذا المفهوم فيه جناية على هذا العلم وفنونه لكن ربما يعتذر لهؤلاء طبيعة العصر الادبي الذي كان سائدا حيث صار الحال بالأدب إلى شئ غير قليل من التكلف حتى لكأنهم يلجئون إلى تلك الفنون ليواروا بها ماعليه شعرهم وأدبهم من ضعف .

كما يلحظ من آثار تلك المرحلة تقسيمهم التحسين في تلك الوجوه إلى مايعود على جانب المعنى وتسمى محسنات معنويه وإلى مايعود على جانب اللفظ وتسمى بالمحسنات اللفظية ، وهذا التفريق على هذا النحو لايكاد يفهم ، بل هو مما يلبس، حتى إننا لانقع من بعض الشراح على استدراكات وتفسيرات لهذا الأمر تخفف من آثار هذا التفريق وهي في الحقيقه أشبه بالرجوع او التراجع عنه اصلا .

وقد نجد من الباحثين والدارسين المحدثين والمعاصرين من يرفع من شأن البديع بصوره المختلفة ، ويجتهد في إثبات بلاغته على اطلاق ، حتى

لأننا نكاد نفهم أن ليس في البلاغة سوى البديع، كما هو موجود من يغض من قيمة البديع جملة وينزل به عن رتبة البلاغة حتى لكأنه غير معدود منها فهو كغير المعتد به اصلاً .

وهذا دون شك تفريط، إذ البناء عليه يعني إسقاط احد أضلاع البلاغة وقسم منها كما أن الاتجاه الأول افراط ، فإن الذي لاشك فيه أن في البديع ماامر التكلف فيه ظاهر إلى حد ينئ به صاحبه عن المفاهيم البلاغية الصحيحة.

والأعدل فيما نقدر نبـذ الأحكام المطلقة والدعوات التي تعم ، والأمر مع ضروب البديع كما هو مع مسائل المعاني وصور البيان ، فمن البديع الحسن والبليغ ، كما أن منه الردئ والمتكلف والمبتذل ايضاً وماالفاظه خربية وخواء ، ومامن ريب في أن حسنه حسن ومقبول وقبيحه قبيح ومردود، كما أن من التشبيه والاستعارة او غير ذلك من مسائل العلم ماهو جيد وصواب ومقبول مثلما أن منه ماهو ردئ وخطأ ومرفوض، والحاكم في ذلك ابداً الوفاء بالأغراض والمقاصد وحسن التعبير عن المراد وتوفيق المتكلم في اختيار الأمثل من طرق الاداه بحيث لايكون في الميسور استبدال طريق أخر بما سلك، وعلى مقدار إصابة المتكلم في كل هذا ونحوه مما هو من متطلبات بلاغة الكلام : يحكم له بالبلاغة ولطريقه الذي آثر بالصواب .

ولاشك في أن لأساليب الطباق والمقابلات ، بلاغتها وأثرها، فهي من ذلك القبيل المحبب إلى النفوس والمستميل لها كي تقبل على الكلام وتعي غاياته وأغراضه ، حيث إن بها إبراز المعاني وجلائها بالمعرض الذي تبرز عليه ، فإن جعل الشئ بإزاء مقابله مما هو ضد له او مافي حكمه يجعل النفس على ادراك حقائق الكلام والمعاني التي يود المتكلم التعبير عنها، ومن

هنا رأينا بعض الشعراء والمتكلمين يؤثرون التعبير بها حتى كان منهم من شاع واستخرج منه صوراً وضروباً خاصه .

ثم إن لتلك الاساليب أنماطاً عالية وصورا بليغة رتحتها غايات جليلة في النموذج الاعلى للإعجاز : القرآن الكريم ، فقد ورد فيه طرق واستعمالات عديدة ومتفردة من هذا القبيل مما يحرض على الأتبال على امثال هذه الضروب بالدراسة والتحليل هذا فضلا عما يتعلق بأمر معالم تلك الضروب وحدودها ، وكذا تلك الضروب الأخرى التي ذكر انها تدخل تحت الطباق او المقابلة او قيل أنها تخرج عنهما او تعد من ملحقاتهما رغير ذلك مما يحتاج إلى كشف وايضاح وربما إثارة حوار ونقاش .

وقد حاولت هذه الدراسة : أن تعرض لضروب هذا الفن ومسائله من واقع السياق، ومع العناية بأبراز اغراض الكلام ومقاصده ، حيث يتحقق بذلك وصف البلاغة للكلام ، فلايفي بحق البلاغة أن يقتصر على مجرد اجراء الطباق أو المقابلات بتحديد اطرافهما وبيان انواعهما، وإن كان ذلك مهما ولابد منه في العرف البلاغي، إلا أن الأهم والذي لاينبغي الإنصراف عنه بحال ماوراء التعبير من مغزى وغرض وأثر، وذلك بتبصر ماعليه التركيب وصياغته وطريقة بنائه ، فلاشك في أن لتقديم احد طرفي الطباق او المقابله على الطرف الآخر معنىً او رمزاً ، كما أن في التعبير بصياغة الاسم او الفعل ونوع الاسم ونوع الفعل اشارة وغرضاً ايضاً هذا إلى مايحف بالتركيب من قرائن واحوال في السياق تكون ذات دلالة واحوال خاصة. وبذلك كله ونحوه تكون بلاغة الطباق والمقابلة او تفهم على وجهها الصحيح كما هو الحال والشأن مع سائر مسائل هذا العلم وطرق العبارة عنه ايضا .

وبهذا يتضح كيف ان اجتزاء التركيب وبتره عن سياقه فيه تضييع لكثير

من معالم بلاغة الكلام ، ولهذا حرصت الدراسة على أخذ التركيب بسياقه فتثبت الآية او الآيتين او الآيات ، وكذا البيت او البيتين او الأبيات كما تشير إلى ما يتصل بالغرض ومايكون له أثر على المعنى المفاد بطريق الطباق أو المقابلة .

وقد استعنت إلى جانب النماذج المتعلمة والتي درس عليها الطباق او المقابله بنماذج اخرى كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف ومصادر النقد والأدب ودواوين الشعراء ودراسات الباحثين .

وقد سارت الدراسة لتحقيق غاياتها في اتجاهين ، او اديرت احاديثها على محورين ، عني الأول اصلاً بابراز المعالم والحدود والصور والفروق مع ايضاح ماابهم وتفصيل مااجمل وذكر مالابد من ذكره تعقيباً او مناقشة ، واماالثاني فقد كانت احاديثه مصروفة اصلاً للتطبيق الخالص والتحليل الباحث في اسرار التعبير وبلاغته في القرآن الكريم : آيات متتابعه منه وفي صورة من صوره المباركة وفي آيات متفرقات وفي متشابه مطابقاته وهكذا في نماذج من الأحاديث المشرفه ثم في شعر ابي تمام والبحتري وغيرهما ثم كانت تذييل بذكر بعض المقاييس العامه التي يحتكم إليها في المطابقات والمقابلات .

والله وحده المستعان فمنه التيسير والتوفيق

★ ★ وعلى الله قصد السبيل ★ ★

د / محمد على ابوزيد

الزقازيق في الأول من يـنـايـر ١٩٩٠



القسم الأول

الطبـاق والمقابلـة معالم وضروب

الطبـاق

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين ، ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمت الله قريب من المحسنين** ﴾[1].

واضح أن الغرض المراد من النظم الحكيم توجه المسلمين إليه تعالى بالدعاء في كل حال سرا وجهرا وكذا التنبيه على الباعث من وراء ذلك الدعاء والمراد بالتضرع المأمور به هنا إظهار التذلل خاصة، ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء، لأن الجهر من هيئة التضرع ، وهذا التفسير هو الأنسب في هذا السياق لمقابلته بالخفية ليكون الأسلوب موافقا لنظيره في الآية الكريمة الثانية : [**وادعوه خوفا وطمعا**] من حيث المقابلة فالنظم الكريم في سياق الإذن للمسلمين بأن يدعوه تعالى جهرا او سرا، كما أن المقصود بالآية الكريمة الثانية **تعليم الباعث على هذا الدعاء بعد أن علموا كيفيته** ، **أي** : الدعاء إنما يكون لأجل الخوف من غضبه تعالى وعقابه وللطمع في رضوانه سبحانه وثوابه .

المهم أنك ترى في كلى الآيتين الكريمتين جمعا لمعنيين متقابلين حيث قوبل التضرع الذي هو بمعنى الجهر في هذا السياق بالخفية ، كما قوبل الخوف بالطمع في الآية الكريمة الثانية .

ويلحظ أن من وراء التعبير على هذا النحو مغزى جليل ، فقـد أشتمـل

---

(١) سورة الأعراف : [٥٤ – ٥٥] .

التعبير بالخوف والطمع على جميع مايتعلق به أغراض المسلمين نحو ربهم في الدنيا والآخرة فيدعونه تعالى بأن ييسر لهم أسباب حصول مايطمعون ، وأن يباعد بينهم وبين مايخافون ، وهذا يقتضي توجه هممهم إلى امتثال كل مأمور به طمعا في الثواب، والى اجتناب كل منهي عنه خوفا من غضبه تعالى عليهم ، وحلول عقابه بهم .

فالتعبير بهذا الطريق اذن اقتضى الأمر بالإحسان من حيث كونهم يعبدونه تعالى عبادة من هو حاضر فيستحي من أن يعصي .

ويروي عن النبيﷺ قوله : [خير المال عين ساهرة لعين نائمة] .

وفي الحديث الشريف نرى الجمع بين السهر والنوم ، وهما ضدان ، ولأن المراد أن أفضل الأموال هي هذه الأنهار الجارية فأنها تجري ليلا ونهارا وصاحبها نائم لايدري بحالها كان التعبير بالسهر في جانب العين مؤديا لتمام الغرض المراد من حيث دلالة ذلك اللفظ على دوام النفع في مقابل مايكون من حال صاحبها وهو المعبر عنه بالنوم هنا .

ويقول الشاعر متسعذبا أياما خلت ومستدعياً بعضاً من وقائعها التي صار مفتقدا إياه :

ألا ليت أيامــا مضى لي نعيمهـــا
تكـر علينا بالوصال فننعـم

وصفراء تحكي الشمس من عهد قيصر
يتــوق إليها كــل من يتكـرم

اذا مزجت فــي الكأس خلــت لآلئــا
تنثـر فـي حافاتهـا وتنظــم

جمعنا بهذا الأشتان مــــن كــل لــذه
على أنه لم يغش في ذا محرم

نرى في هذا الشعر فنرى الجمع بين أكثر من متقابل حيث جمع اولا بين [مضي] و [تكر] كما جمع بين كل من [تنثر] و[تنظم] وكذا بين [جمعنا] و [الاشتات] في البيت الأخير .

وقد حقق الشاعر بهذه المتقابلات غرضه ، حيث صور ماكان في تلك الأيام التي خلت مما تسطيبه نفسه تذكره ، مع تمني عودته .

وقد جرى العرف البلاغي على تسمية ماكان على مثل هذا الطريق من الجمع بين المتقابلين بالطباق (١) ، أو المطابقة (٢) ، أو التطبيق أو التكافؤ (٣) ، أو مجاورة الأضداد (٤) ،أو المقابلة (٥)

ويعرف الطباق عند جمهور البلاغيين بأنه الجمع بين متقابلين في الجملة في كلام واحد، وقد أثار بعض أهل العلم جدلا حول الصلة بين المدلول اللغوي لكلمة الطباق أو المطابقة وبين المراد الاصطلاحي ، فعلي حين تذكر بعض المصادر أن معنى هذا اللفظ في اللغة مأخوذ من طابق البعير في مشيه ، اذا وضع خف رجله موضع خف يده ، فالرجل واليد ضدان ، أو في معنى الضدين ، قالوا : إن الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدين ،أو ما في حكمها يسمى طباقا، فإن المتكلم بذلك قد طابق بين الضدين (٦).

لكن قدامة بن جعفر لم يرتض هذا الاطلاق على تلك الصورة ، وانما الطباق عنده يطلق على ماتشترك الكلمتان فيه لفظا مع اختلافهما معنى (٧) . وهذا مايعرف عند جمهور البلاغيين بالجناس، وأيضا فان ابن الأثير والعلوي يريان الأجود اطلاق لفظ المقابلة على هذا الضرب من البديع ، لأن الضدين يتقابلان كالسواد والبياض، والحركة والسكون ونحو ذلك من الأضداد من غير حاجة إلى اطلاق امثال الطباق والمقابلة مما يشعر بالتماثل بدليل قوله تعالى ﴿ **سبع سموات طباقا** ﴾ (٨) أي : متساويات .

---

(١) سر الفصاحة لابي سنان
(٢) الإيضاح
(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر
(٤) قواعد الشعر لثعلب.
(٥) المثل السائر لابن الأثير والطراز للعلوي .
(٦) الإيضاح .
(٧) نقد الشعر ص ١٦٢
(٨) سورة الملك الآيه [٣]

وعلى ذلك فكل ماجرى فيه تقابل يدخل في المقابلة ، فالمقابلة على هذا تتسع فتشمل صور الطباق جميعا وكذا صور المقابلة على ماجرى عليه من قال بالتفريق بينهما .

ومع التسليم بأنه لامشاحة في المصطلحات كما يقولون إذ الأهم وخاصه في باب البلاغة ماوراء الضرب البلاغي من اغراض وأسرار، إلا أن الحقيقة التاريخية تثبت صحة إطلاق أمثال لفظ الطباق والمطابقة على تلك الصورة البديعية حيث نقل عن الخليل : يقال : طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما [١].

كما ينقل عن الأصمعي كلام قريب من هذا غير أنه يستهشد للطباق بقول الشاعر :-

ليث يعثر تصطاد الرجال اذا ماالليث كذب عن أقرانه صدقا

وهذا الاستشهاد يكشف عن معنى المطابقة كما هو المصطلح البلاغي ، اذ جمع فيه بين الصدق والكذب، وهما ضدان .

وينبغي الاشارة إلى أن المراد بالتقابل في هذا آلباب جار على ضرب من التسامح فهو يتسع بحيث يشمل التضاد والتناقد على عرف المناطقة ، كما يشمل تقابل العدم والملكة كالسمع والصم . والبصر والعمي والنطق والبكم ، وكذا مايعرف بتقابل التضايف كالتقابل الحاصل بين الأبوه والبنوه، بل ويشمل كذلك مايكون بالنظر الى الاعتبار ، أو مآل المعنى حسبما يرشد اليه سياق الكلام وغرض المتكلم وإن لم يكن بين ظاهر الالفاظ تقابل على الحقيقة ، هذا فضلا عما يكون من التقابل حاصلا من أثبات الكلام وسلبه . ولأن غرضهم من التقابل في هذا الباب على هذا النحو من الاتساع في

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٧ .

المدلول ذكروا في حده مايرشد إلى هذا وهو المراد بقولهم : ماكان بينهما من تقابل في الجملة .

وعلى هذا يدخل في الطباق نحو قول أبي تمام :

مها الوحش الا أن هاتا أو انس

قنا الخط الا أن تلك ذوابل

لمطابقته بين هاتا وتلك . واحداهما للحاضر والأخرى للغائب ، فكانتا في المعنى بمنزلة الضدين، هذا قول أبي الحسن الجرجاني في التخريج ، وإن كان الأوضح والأصح أن معنى المطابقة راجعة هنا إلى أن احد الاشارتين للقريب والأخرى للبعيد .

كما يدخل في المطابقة قول أبي الطيب يذكر خيل العدو الزاحف للحرب

ضربن الينا بالسياط جهالة　　　فلما ضربن الينا ضربن بها عنا

فقوله : ضربن الينا : مجئ اقدام ، وقوله : ضربن بها عنا : ذهاب فرار وهما ضدان .

وأيضا قول الآخر :

فإن تقتلونا في الحديد فاننا　　　قتلنا اخاكم مطلقا لم يكبل

فقوله : في الحديد : ضد قوله : مطلقا لم يكبل وان لم يأت على متعارف المضادة وكذلك قوله :

فان يك أنفي زال عني جماله　　　فما حسبي في الصالحين بأجدعا

فكأنه قال: وأن يك أنفي أجدع فما حسبي بأجدع ، وعلى ذلك فلا أكاد أرى مسوغا لأعراض أبي الحسن الجرجاني على دخول مثل قول الشاعر

يرثى أخاه :

لقد كان أمّا حلمه فمروح   علينا وأمّا جهله فعزيب

نعم إن الحلم ليس ضده في الحقيقة الجهل ، وإنما ضده السفه والطيش، وضد الجهل : العلم والمعرفة وماشاكلهما ، وكذلك المروح ليس ضده العزيب، وأنما ضده: المبكر به مثلا ، لكن لما كان الأمر هنا يجري على ضرب من التسامح شاع مثل هذا الاستعمال وقبل في المقابلة والمطابقة ، ولو على ضرب من التأويل، والعزيب هو البعيد والغائب، ولامضاده بينه وبين المروح الا بأعتبار ان مراده : أن هذا يأتي لوقته . وذلك بعيد خفي لايأتى ولايعرف [١] .

على أنا نجد أمثال أبي تمام وهو ممن يشهد لهم برسوخ القدم في مثل تلك الضروب البلاغية يقول :-

ولقد سلوت لو أن دارا لم تلح   وحلمت لو أن الهوى لم يجهل

كما نسبو لزهير وقيل انه لاوس بن حجر :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا

أصبت حليما أو اصابك جاهل

ولما كان خلاف بين الحلم والجهل طابق بينهما ، كما يقابل بالضد وأن لم يكن بها تضاد على الحقيقة .

وعلى ذلك فان قول الشاعر :

وحسنه غاية الجمال ولكنه   فعله غاية لكل قبيح

طباق ، فأنه قابل بين الجمال والقبح ، وليس بينهما مضادة على الحقيقة ، فان ضد الجمال الدمامة ، وأما القبح فضده : الحسن .

وكذا قول الشاعر يصف قلما :

(١) العمدة جـ ٢ ص ٩ .

ناحل الجسم ليس يعرف مذكا ن نعيما وليس يعرف ضرا

وإن لم يكن بين لفظي النعيم والضر مضادة على الحقيقة ، فأن ضد النعيم : البؤس، حتى إنهم عدوا المغايرة في الألوان حيث يجمع في الذكر بين اللونين من نحو الحمره والبياض مما يدخل في هذا الباب مع أنه معلوم أنه لامضادة في الألوان الا بين لوني السواد والبياض على الحقيقة ، فقول الشاعر :

سود نواصيها حمر أكفها صفر تراقيها وبيض خدودها

مما يجري على المطابقة أيضا .

فأما ماكان نظير قول المتنبي :

فالسلم نكسر من جناحي ماله بنوا له ماتجبر الهيجاء

فأنه داخل في الطباق المحض ، لأن المراد بالهيجاء: الحرب، وهي أسم من أسمائها ، فكأنه قال : الحرب فالطباق بينه وبين السلم حقيقة (١).

وهذا الاتساع في مفهوم معنى التقابل في المطابقة يعد أحد الدعائم التي تقوم عليها بلاغة هذا الضرب، اذ لايقف الأمر عند حد تلك المقابلات الظاهرة، وإنما هناك ضروب أخرى عديدة لايتيسر ادراك وجه المطابقة معها والوقوف على مغزاها بغير قراءة السياق والقرائن وتبصر دلالات الألفاظ، ومواقع الكلمات، والعلم بحقائق اللغة، وماجرى عليه العرف ، وهذا لايكون إلا بتتبع النماذج العالية شعرا ونثرا، ومن قبل ذلك في النموذج الأعلى للفصاحة والإعجاز : القرآن الكريم وكذا ماورد في كلام أفصح البشر ﷺ .

اذ ليس العبرة في هذا الفن البديعي مجرد معرفة أن في الكلام جمعا بين متقابلين ليصح أطلاق الطباق عليه ، وإنما المهم في باب البلاغة دائما الوقوف على مغزى هذا الجمع بين المتقابلات حيثما ذكرت، اذ لابد أن يكون من وراءه معنى ومغزى وغرض، والا صار الكلام ضربا من العبث

(١) العمدة : جـ ٢ ، ص ١٢

والخداع والتذويق والكذب أو التكلف الذي لاتدعو إليه ضرورة .

أنظر مثلا إلى قول حبيب بين أوس مادحا :

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد

تجد أن ليس من وراء الجمع بين المتقابلين معنى أو غرض ، ومن هنا حكموا على أمثاله بالقبح والاستهجان (١).

ثم أنظر إلى قوله تعالى : **﴿ الله يعلم ماتحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وماتزداد وكل شئ عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾** (٢) .

تجد هذه المطابقات البليغة في تلك الآيات الكريمة ، حيث وردت المطابقة أولا بين [تغيض وتزداد] ، وكذا بين الغيب والشهادة ثم بين أسر وجهر وبين مستخف بالليل وسارب بالنهار]، ثم تأمل سياق النظم الكريم والغرض منه ، تتضح لك بلاغة هذه المطابقات، فالمراد: الدلالة على شمول علمه سبحانه وتعالى لسائر خلقه وملكوته ، وما كان ، أو يكون . ماظهر من ذلك وشوهد وماخفي واستتر عن الخلق ، أو عمد بعض الخلق إلى ستره وأخفاءه

وحيث كان الغرض هذا فقد جاءت المقابلة بين [تغيض الأرحام] [وتزداد]، لتحقق تمام علمه تعالى بحال الاجنة في بطون امهاتها حتى قبل تمام الخلق والبروز إلى الحياة ، فعلمه تعالى لما تغيض الأرحام ، أي تنقصه ، وما تزداد، سواء أريد بالنقص والزياده مايتصل بالمدد، أو مايتعلق بتمام الخلق أو عدم تمامه ، فكل شئ عنده تعالى مقدر بما لايمكن تجاوزه ، فان لكل أمر من الأمور مع مراتب تكوينه وأطوار وجوده وقتا معينا وحالة مخصوصة لايكاد يجاوزها، ثم تأتي المطابقة بين علم الغيب والشهادة لتفيد

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٥ . (٢) الرعد : الآيات [٨، ٩، ١٠]

عموم علمه تعالى لما غاب عن الخلق ولما هو كائن ومشاهد، وقد ورد التعبير على هذا النحو مفيدا معنى المبالغه .

وحيث أفادت هذه المطابقات أنه تعالى عالم بجميع أحوال الإنسان في أطوار خلقه وأنه محيط بعلم الغيب والشهادة : بين أنه تعالى عالم بجميع مايأتون به ومايذرون من الأفعال والأقوال ، وأنه لافرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فجاء قوله تعالى: ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به** ﴾ فالمطابقة هنا أفادت أستواء أمر إسرار الشئ واخفاءه ، أو أعلانه وإظهاره في علمه تعالى، وكذا لايند عن علمه تعالى من بالغ في الإخفاء ورأى في ظلام الليل معينا له ، أو بارز مجاهر بفعله بحيث يراه كل أحد ، فلاهو بمستح ولامبال ، بل بدا من حاله وكأنه معجب مختال فيأتي بما يأتى في غير أكتراث ولا رادع من نفسه ولا من غيره ، ويلحظ في تقديم الإسرار والاستخفاء هنا لإظهار كمال علمه تعالى، فأنه في التعلق بالأمور الخفيه أثبت منه بالظواهر ، وأن كان الجميع سواء في علمه تعالى على الحقيقه ، ولهذا الاعتبار أيضا قدم علم الغيب على الشهادة من حيث كان علم الغيب أدل على ثبوت علمه تعالى وشموله .

ومن معجز هذا الضرب في القرآن الكريم كذلك قوله تعالى: ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون** ﴾[1] . فقد جمعت المطابقات هنا بين أجزاء الظرف المكاني: السموات والأرض ، كما جمعت بين أطراف الظرف الزماني، لأن المساء ضد الصباح ، والعشاء ضده الظهر، ومن حسن بلاغة المطابقات هنا أنه روعي مقابلة كل لفظ بما هو أنسب به وأخص، فالمساء وهو زمن الليل مطلقا مقابل بالاصباح ، كما أن العشي وهـــو وقت معين

(١) الروم : [١٧ ، ١٨] .

من الليل ، مقابل بمعين من النهار يناسبه ، وهو وقت الظهيرة ، وأن أريد بالمساء دخول الليل حسنت المطابقة بينه وبين الإصباح من حيث إنه يراد به حينئذ وقت دخول الصبح ، فالمطابقة حاصلة مع الاعتبارين .

ويقول تعالى في مدح أهل الإيمان الحق وذكر أحوالهم الدالة على تمام تعلقهم واستدامة ذكره تعالى وخطوره ببالهم في كل حال: ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** ﴾ فقد جمعت هذه المطابقة بين الهيئات التي يكون عليها أمثال هؤلاء فهم يذكرونه تعالى في كل حال يكونون عليه في أثناء حركاتهم ونشاطهم وفي حين سكونهم ورقادهم كذلك .

ويلحظ هنا تقديم القيام على القعود على غير ماورد في مواقع أخرى نظير قوله تعالى: ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ...** ﴾ [1].

ولاريب في أن من وراء تلك المغايرة في الترتيب بلاغة تدرك من فهم سياق الموقعين ، فالآية الأولى في سياق الذكر هو مفسر هنا بالصلاة ، وبما أن القيام واجب فيها على المستطيع ، والقعود رخصة لمن لم يستطع القيام، ولايكون الاضطجاع فيها الا لمن هو عاجز عن القيام والقعود لذلك قدم القيام على القعود. وأما الآية الثانية : فواردة في سياق من وقع عليه الضر وحينئذ ، فتقديم الاضطجاع هنا أولى وأدل على الغرض لدلالته على غاية الضعف لغلبة أمر المفاجأة بما وقع ، فإذا زال عنه شئ من الانزعاج وأثر البغتة : قام من اضطجاعه حتى إذا استجمع قواه نهض وقام .

كما يلمح مع العطف بأو هنا دون الواو معنى التقسيم ، فأن معها اشارة إلى بيان أن أحوال الناس عند وقوع الضر عليهم متباينة. فمع أنهم يتوجهون إليه تعالى بالدعاء لكشف ماحل بهم من بلاء: تتباين هيئتهم فمنهم

---

(١) يونس : [١٣]

من يدعونه تعالى في حال الاضطجاع ، ومنهم من يدعونه قعودا، كما أن منهم من يدعونه عن قيام ، فنظرا لاختلاف أحوال الناس تبعا لأثر وقوع الضر بهم ومدى عمله فيهم : كان هذا الترتيب على تلك الصورة وكانت[أو] حينئذ أبلغ استعمالا في هذا الموضع ونظائره .

صور الطباق

وقد جرى العرف عند أهل البلاغه على تقسيم الطباق إلى أقسام عديده وبالنظر إلى أعتبارات شتى .

ونود أن نشير أولا إلى أنه ليس المهم تعداد تلك الأقسام والتفريعات ، وأنما المهم تتبع تلك الأقسام والصور بغرض الاهتداء إلى الفروق بينها في الدلالة ، ومغزى التعبير مع كل منها، فالمتكلم البليغ قصد وغرض من وراء أيثار التعبير بالفعل مثلا ولاشك يفوت إن هو عبر عنه بالاسم أو الحرف، حتى وأن كان الطباق في كل الأحوال حاصلا من حيث الظاهر، بل إن سلوك ضرب معين من ضروب الفعل أو مايلحق به من مشتقات أنما يكون من وراءه ملمح يفوت ، أولا يتحقق على وجهه الصحيح أن عبر بغيره .

ومن هنا كانت دراسة هيئة الكلمات والصيغة التي هي عليها ، ومالابسها في التركيب الذي هي فيه مع ملاحظة السياق والاعتداد بالقرائن فتلك . أمور لابد أن تأخذ حقها من الاعتبار حيث يراد فهم الأساليب وطرق أداء المعاني .

وبعد هذا أعود إلى ماكنت أصلا بصدده وهو ذكر صور الطباق وأنواعه :

فمن حيث الصيغة وهيئة الكلمة :

يرد الطباق على أقسام الكلمة الثلاثة بمعنى أن تكون ألفاظه من قبيل

الأفعال أو الأسماء أو الحروف ، كما تتداخل تلك الأقسام معاً فليس بشرط أتحاد الطرفين فهو يرد وبعض الفاظه اسما والبعض الآخر فعلا وهذا خلاف لمن اشترط اتحاد الطرفين[١] ، وأخطأ في ذلك لمخالفته الوارد في الاستعمال .

بين الأسماء

يقول الله تعالى في سياق الأمر باجتناب وترك كل أثم ومحرم: ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾ [٢] أي : إن اردتم التقرب إلى الله حقا فتقربوا إليه بترك كل إثم ومحرم في كل حال وعن صدق عزم وخلوص مقصد، لاكما عليه حال بعضكم من زهد المباح تناهراً بمزيد طاعة .

والتعريف في الإثم تعريف الاستغراق، لأنه في المعنى تعريف للظاهر وللباطن منه ، والمقصود من هذين الوصفين تعميم أفراد الإثم لانحصارها في هذين الوصفين ، كما يقال: المشرق والمغرب، والبر والبحر، لقصد استغراق الجهات والأماكن ، فقصد هنا: ترك عموم الآثام فأنها لاتكون إلا على أحد الحالين فأفاد الجمع بينهما على جهة المطابقة هذا المعنى، وظاهر الإثم مايراه الناس، وباطنه مالايطلع عليه الناس ويقع في السر والله تعالى مطلع عليه ، فقد استوعب هذا الأمر اذن بما علق به ترك جميع المعاصي، وقد كان كثيرمن العرب يراءون الناس بعمل الخير، فإذا خلوا ارتكبوا الآثام.

ولعل تقديم : [ظاهر] مراعاة لتلك الحال ، كما أنها الأشد ضرراً بما فيها من اشاعة الفساد والقدوة السيئة .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾ [٣] .

---

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٢٨٨ (٢) سورة الأنعام [١٢٠] .
(٣) سورة البقرة الآية [٢٥٧]

فالمطابقة في الآية الكريمة بين الظلمات والنور ، وهما أسمان ، لكن يلحظ المغايرة بين اللفظين حيث جمعت الظلمات وأفرد النور، ومن وراء ذلك مغزى جليل، فان للكفر والضلال المراد من الظلمات سبلا شتى وطرقا متفاوته ومختلفة ، ففي جمع الظلمات إشارة إلى هذا المعنى، بخلاف أمر الإيمان والهداية وهو المراد بالنور فهو سبيل واحد ، لذلك ورد لفظ النور للدلالة على هذا الإفراد ، « **قل هذه سبيلي** »[1] ، ومن هنا رأينا العرف القرآني يجري على هذا النحو في جمع الظلمات وأفراد النور حيث وقع فالظلمات ضلالات ، « **ولاتتبعوا السبل** »[2]

ويقول سبحانه : ﴿ **هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾[3] فقد وقعت المطابقة هنا بين [خوفا وطمعا] ، وهما اسمان ومن بلاغة هذه المطابقة : أنها جمعت بين كل من الحالتين التي يكون عليهما الناس عندما يرون البرق ، اذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والهلاك بذلك ، والطمع في الإمطار والرزق به ، ولاثالث لهذين الأمرين .

ومن لطيف موقع هذه المطابقة : تقديم الخوف على الطمع ، اذ يجوز وقوع مابه هلاك أول الأمر، ولايحصل مطر إلا بعد تواتر الإبراق، ولما كان الأمر المخوف من البرق يجوز وقوعه من أول الأمر: قدم ذكر الخوف، ولما كان الأمر المطمع من البرق أنما يقع بعد توالي الإبراق: أخر ذكر الطمع ، ليكون الطمع ناسخا للخوف الذي كان ، كمجئ الرخاء بعد الشده ، والفرح بعد الكرب، والمسره بعد الخوف، فيكون ذلك أحلى موقعا في القلوب . ويشهد بهذا قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا ، وينشر رحمته** ﴾[4] هذا فضلا على ماهو معلوم من أن درء مافيه مضرة مقدم على جلب مافيه منفعه ، لذا كان وقوع المطابقة على هذا النحو

---

(١) سورة يونس : الآية [٢٨] . (٢) سورة الأنعام : [١٥٣].
(٣) الرعد : الآية [١٢] (٤) الشورى : [٢٨] .

من تقديم الخوف على الطمع مطابقا لمقتضيات الحال والغرض .

ومن هذا الضرب من المطابقات كذلك ماورد في قوله تعالى ﴿ **والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وماقلى وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ (١) حيث كانت المطابقة بين الضحى وبين الليل في الآية الكريمة الأولى، ثم كانت بين الآخرة والأولى في الآية الكريمة الثانية ، وطرف المطابقين من قبيل الأسماء، غير أنه يلحظ أن اللفظ المقابل للضحى ، وهو الليل قد جاء هنا مقيدا [**اذا سجى**] وهذا التقييد مهم في هذا السياق، ذلك أن الليل لايقابل مطلق النهار، حتى تتم المقابلة به على إطلاق ، وإنما المقابلة بين الليل ووقت متعين من أوقات النهار، وهو وقت الضحى ، وهو الوقت الذي تكون فيه الحركة والنشاط، أو هكذا ينبغي أن يكون الأمر فملاءمة المطابقة تقتضي اذن أن يقيد الليل بما يعين وقتا منه حتى تكون مقابلته بالطرف الآخر على أتم وجه فجاء قوله تعالى [اذا سجى] أي : إذا سكن وهدأ، فحصل بهذا تمام المناسبة بين الطرفين ، فمادام سبحانه وتعالى قد أقسم أولا بوقت من النهار تكون فيه الحركة والنشاط، فقد أقسم سبحانه كذلك بوقت من الليل يكون فيه السكون والهدوء، على أنه ينبغي الاشارة إلى أن ليس المراد في الحقيقة : مجرد الدلالة على مايشير اليه ظاهر اللفظين من الحركة والسكون والجمع بينهما على هذا النحو، بل من وراء ذلك الجمع والمطابقة معنى جليل، حيث الآيات واردة في سياق تطمين قلبه ﷺ وتسكين فؤاده الشريف، وأن فتور الوحي وانقطاعه عنه عليه الصلاة والسلام فترة من الزمان، وقد أورثه ذلك شيئا من الحرج وألم النفس سيعقبه توارد الوحي، وتواتره ، وماتلك الحال إلا أعداد وتهيئة لما سيأتي شأن الليل الساجي ليتخذ الناس منه لباسا لهم وراحة يتهيئون بها لمشاق الحياة والحركة في نهارهم ومعاشهم .

---

(١) سورة الضحى : الآيات [١، ٢، ٣] .

فانظر إلى فضل ملاءمة هذه المطابقة على هذا النحو من تقييد أحد طرفيها لفظا ليلائم الطرف الآخر، فهو وإن لم يقيد في اللفظ لكنه مقيد بأعتبار معناه ودلالته ، اذ الضحى وقت من أوقات النهار خاص، وتلك الخصوصية مرادة في هذا السياق .

ثم أنظر إلى المقابلة بين لفظي [الآخرة والأولى] ، والشأن والظاهر في مثل تلك المقابلة ذكر لفظ الأولى أولا، كما جرى على ذلك الاستعمال القرآني في أكثر المواقع ، وقد يقال: انما كان التأخير هنا مراعاة لفواصل الآيات على مثال ماعليه الحال في قوله تعالى : **﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾**[1] :**﴿ أم للإنسان ماتمنى فلله الآخرة والأولى ﴾**[2] ونظير هذا ماأخر معه لفظ الأولى على الآخرة لمناسبة رؤس الآي كما قيل.

ولاريب في أن للفاصلة القرآنية بلاغتها. لكن ذلك لايمنع من التماس توجيه آخر مع ذلك ، ولاتزاحم ولاتعارض بين تعدد التوجيهات والأخذ بها معا خاصة وأن السياق والقرائن تعين على هذا وتدعو إليه ، فالمراد بالآخرة والأولى هنا على مايقول أكثر أهل العلم والتفسير ليس المتبادر وهو الحياة الدنيا والحياة الآخرة- على نحو ماجرى عليه العرف القرآني في كثير من المواقع ، وإنما المقصود بالآخرة والأولى معنى آخر يناسب خصوص هذا السياق، وهو وعد الله سبحانه أن يكون منه وحي لرسوله ﷺ بعد ماكان من انقطاع ، فالمراد بالآخرة على هذا : انزال الوحي مره ثانيه بعد انقطاعه، كما أن المراد من الأولى : ماكان ينزل من الوحي أولا أي : قبل تلك الفترة التي انقطع فيها الوحي فهذا ضمان منه تعالى ووعد بأن تزول عنه تلك الحال التي روعته حينا من الزمان، وهنا يكون تقديم الآخرة في هذا السياق وعلى هذا المعنى المراد أنسب وأبلغ فهذا اللفظ هو محل الوعد وبه

---

(١) سورة النازعات : الاية [٣٥] . (٢) سورة النجم الآية [٢٤ - ٢٥]

يكون التطمين وذهاب التوجس، كما أن المراد أيضا إثبات خيرية ماسيكون من وحي على ماكان من قبل من حيث إنه سيدوم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ فالبناء عادة مايكون رفعاً لقواعد إلى جهة الفوق، والغوص : إنما يكون إلى عمق الماء فحصل بذلك[معنى المطابقة بين اللفظين وقد صيغا على طريق المبالغة لمناسبة ذلك المعنى لتمام الغرض فإن الشياطين المسخرين لسليمان عليه السلام لايكون منهم البناء والغوص فحسب وإنما يكون ذلك منهم على حال من الجد والنشاط والاتقان ، فليس الأمر مقصوراً على مجرد الفعل على آية حال ، كيفما اتفق، وإنما يراد تصوير أن تلك الشياطين يقبلون على ماسخروا لأجلة وهم مهيئون للقيام به وإتيانه على أتم وجه .

ومن كلامه الجامع ﷺ ويدخل فيما نحن فيه « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها: أوصاني بالاخلاص في السر والعلن والعدل في الرضا والغضب والاقتصاد في الفقر والغنى » حيث وقع في تلك الوصية البليغة ثلاث مطابقات ، فكانت المطابقة أولا بين السر والعلن ، والثانية بين الرضا والغضب ، والثالثة بين الفقر والغني، ومن بلاغة هذه المطابقات أن جاء كل منها عقب لفظ ومعنى هو أخص به وأنسب حيث كان الإخلاص معلقا بالسر والعلن لينتفي بذلك شائبة الرياء والنفاق فيما يكون من أعمال، كما علق العدل بحالتي الرضا والغضب، اذ حالة الغضب مظنة لأن يحيد معها الناس عن الحق والعدل فكان الجمع بينهما وبين حالة الرضا موضحا أنه ينبغي الا يستجيب الإنسان فيما يصدر منه عن انفعالات نفسيه وإنما ينبغي أن يكون قصد الحق دائما هو الأصل في كل أحواله، وكذلك علق الاقتصاد بحالتي الفقر والغنى، وفي هذا دلالة على أن ليس الغنى وكثرة المال مسوغاً للتفريط فيه وفي كل وجه ، فكما إن حالة الفقر ابتلاء من الله ، كذلك أمر الغني وكثرة المال فتنه منه تعالى لمن وهبه إياه ومن هنا كان وصيته ﷺ

وتشديده على أمر الاقتصاد والاعتدال في حالتي الفقر والغنى على السواء.

ومن شواهد هذا الضرب شعرا قول كثير يصف عينا

وعن نجلاء تدمع في بياض   اذا دمعت وتنظر في سواد

وقول ابن المعتز :

هواي هوى باطن ظاهر   قديم حديث لطيف جليل

الطباق في الأفعال

وكما وردت المطابقة وطرفاها اسمان تأتي كذلك وطرفاها فعلان، يقول سبحانه وتعالى في قص نوح عليه السلام مع قومه وطول عهده فيهم ودعوته اياهم من كل وجه ومن كل سبيل ﴿ **ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا** ﴾ (١) .

والغرض واضح من هذه المطابقة بين الإعلان والإسرار من حيث إن نوحاً عليه السلام قد داوم على أمر دعوتهم إلى الإيمان ومكث على ذلك مع طول الأمد به فيهم أذ لم يصرفه ذلك عن مقتضيات الرسالة والبلاغ إليهم بكل وجه وطريق .

وقد دلت الآيات السابقة على أنه عليه السلام تدرج في دعوته إياهم فبدأ بالمناصحة في السر فقابلوا منه ذلك بما يدل علي صريح الأعراض والاستكبار والعناد ، ثم ثنى بالمجاهرة ، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار.

ولعل تقديم الإعلان باعتباره اقرب عهداً اذ كان الجهر بالدعوة ثاني اطوار الدعوة ، أو لإنها الأشد أثراً في باب الدعوة والتبليغ، أو الشأن فيها ذلك ، وقد كان فيما سبق ذكر دوام دعوته عليه السلام ليلاً ونهاراً بما يفيد

---

(١) سورة نوح الآية [٩] .

عموم الزمان ثم جاء هنا بما يفيد استيعاب كل سبيل مع هؤلاء معقباً بما يعود عليهم من نفع أو ثواب ومحذراً بما سيقع عليهم من ضرر وعقاب اذا هم استمروا، وذلك كله توطئة وتمهيد لاستدعاء حلول العذاب بهم ودعاء نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن ينزل بهؤلاء العقاب اذا انقطع رجاء الإيمان من أمثال هؤلاء المصرين على ماعلم به نوح عليه السلام من قبل ربه .

وكلمة [ثم] دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض اما بحسب الزمان أو حسب الرتبة ، لأن الجهر أغلظ من الأسرار، والجمع بين الأسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده [1] .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه أمات وأحيا** ﴾ [2] فقد وقعت المطابقة هنا بالجمع بين الضحك والبكاء، كما أتت الاماته والإحياء مع التعبير بطريق المضي والمراد كمايقول الطيبي: أنه تعالى الخالق لأسباب السرور والحزن ، أ و مايسر ومايحزن من الأعمال الصالحة والطالحة ، ولذا قرن هذا الطباق بقوله تعالى:﴿ **وأنه هو أمات وأحيا** ﴾ . ومن هنا يدرك وجه التناسب الطباقين من حيث ان الإماته يعقبها حزن وجزع ، والإحياء بنحو ولادة يعقبه فرح وسرور [3]

وقد يسلك طريق المضارعة في التعبير عن طرفي هذه المطابقة لأن السياق والغرض لهذا ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ [4] . فالغرض: التدليل على بالغ قدرته تعالى . فان كلا من أمر الإحياء والإماته من شئونه تعالى المتفرد بها دون أن يكون لغيره نصيب فيها ، أو في أحداهما .

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢٨ ص ١٣٦ ، ١٣٧ . (٢) سورة النجم : الآية [٤٣ ، ٤٤] .
(٣) روح المعاني جـ ٢٧ ص٦٨ . (٤) غافر : الآية [٦٨] .

ولان كلا من الإحياء والإماته مما يعدد ويتجدد وله مراتب وأطوار كان التعبير عنها بطريق المضارعة المفيد لتجدد زمان الحدثين ودوام هذا الشأن مع كل حال وفي كل حين وجيل وخلق وموجود وكذا ماسيكون من مخلوقات لايتخلف منها عن هذا الحكم أحد، وإذا كان غيره سبحانه عاجزاً عن أن يكون منه أحد طرفي هذه المطابقة يكون إيجاده تعالى لكلى الأمرين وعلى هذا النحو من التعميم المستوعب لكل زمان ولكل مخلوق أدل على بالغ قدرته تعالى . ولذا قدم الضمير العائد عليه تعالى وصدر به النظم الحكيم : ﴿ **هو الذي يحيي ويميت** ﴾ مبالغة في تقوية وتوكيد هذا المعنى في الأذهان مع أنه من المعلوم ان الأحياء والإماتة من ذلك القبيل الذي لايتيسر لأحد أن يدعيه ، حتى يحتاج إلى أمثال تقديم مايفيد الأختصاص بالله تعالى وحده .

وقد يقتضي حال الكلام وسياقه المزاوجة في التعبير عن تلك المطابقة ومنه قوله تعالى : ﴿ **ياأيها النبي لما تحرم ماأحل الله لك** ﴾ (١) ولعل الغرض من وراء التغاير بين فعلي التحريم والحل ومجئ الأول على صورة المضارعة اشارة الى امتداد زمن ذلك التحريم الذي كان منه ﷺ قبل احد زوجاته والتي افضت ماسره عليه السلام إليها وأنبئت به غيرها من ازواجه ﷺ(٢) ، وليس مجرد إفادة وقوع أمر التحريم وتحققه ، واما التعبير عن فعل الحل بالماضي من وراءه مغزى جليل حيث افاد أن ليس ذلك الأمر من تحريم ماحل الله دأب له ﷺ ، ولاهو عادة تتجدد منه وتتكرر في امور متعددة واحوال مختلفة ، وإنما هو موقوف على أمر واحد فقط بذاته والذي كان سبباً في ذلك الخطاب والعتاب منه تعالى لحبيبه الرسول ﷺ فانظر كيف أومأت صيغة الماضي في جانب الحل إلى هذا اذ لو كان المضارع في مثل هذا الموقع لربما اشعر بحدوث مثل هذا الأمر المعاتب في شأنه

---

(١) سورة التحريم : الآية [١] .

(٢) اسباب النزول للسيوطي ص ٢٨٠.

وتوقع تجدده ممالا يتناسب ومقامه الشريف ﷺ ثم إن مع صيغة الماضي تعبيراً عن أن الأمر المتحدث في شأنه حله حاصل وواقع ومحقق ، ومن هنا كان نزول الآية الكريمة والخطاب والعتاب منه تعالى للمصطفى ﷺ وعلى هذا النحو المؤذن بغاية المحبة والتلطف وامثال هذا مما يشير إليه الاستفهام المصدر به النظم الكريم يقول تعالى: ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ (١).

فالآية الكريمة تجمع بين طباقين ، وقد عبر عن أحد طرفي الأولى منهمابالاسم« اموات » وعن الآخر بالفعل الماضي « فأحياكم » وعلى حين كان التعبير عن طرفي المطابقة الثانية بلفظ المضارع « **ثم يميتكم ثم يحييكم** » وذلك لأن الآية الكريمة في سياق خطاب ، من هم موصوفون حال الخطاب بالحياة التي أوجدها الله تعالي لهم بعد أن كانوا في حال العدم كالأموات ، فكان التعبير عن حياتهم بالفعل الماض لتحقق وصف الحياة فيهم ، ثم كان التعبير من بعد على سبيل المضارعة لأن كلا من الموت وحياة البعث ممايستقبل ويطرأ .

وهذا النوع من المطابقات أعني مايقع بين الأسماء والأفعال كثير الورود في القرآن الكريم وفي كلام الفصحاء .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **ماعندكم ينفد وماعند الله باق** ﴾والتعبير في جانب ماعند البشر بالنفاد على طريق المضارع يشير إلى واقع محسوس وهو زوال مااستخلف الناس فيه من مال ومتاع شيئا فشيئا وأن ذلك هو ماوراء الضن منهم اذ الانفاق ينقص شيئاً مما عند الناس مما يدفعهم إلي الإمساك خشية تمام النفاد ، واما التعبير في جانب ماعند الله تعالى بصيغة « باق » فالقصد الدلالة على ثبوت ذلك الأمر معناً كما دل عليه لفظ البقاء فحصل بذلك تمام المناسبة من حيث دلالة الكلمة في ذاتها ودلالة صيغتها على معنى الثبوت والدوام لما عند الله في مقابل ماعند البشر والشأن فيه التغير والتقلب والتنقل والزوال .

---

(١) البقرة : الآية [٢٨] .

ومن ذلك ماورد في خطبة للإمام على كرم الله وجهه:[الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الاصوات، ويصمه كثيرها، وكل بصير غيره يعمي عن خفي الالوان ولطيف الاجسام ، وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر] (١) .

فهذا النص البليغ قد اشتمل علي مطابقات ثمانيه ، واذا كان أكثرها بين الأسماء من نحو المطابقة الحاصلة بين لفظي : أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا فقد جاء بعض منها بين الأسماء والأفعال كالمطابقة بين : قادر ويقدر ، وكذا مابين سميع ويصم .

ومما ورد على ذلك شعراً :

ساهم الوجه لم تقطع اباجله   يصان وهو ليوم الروع مبذول

يريد الشاعر بذلك وصف فرس بالقوة والجري السريع من غير ان تبدو اثار ذلك الجري على وجهه لقوته ودربته حيث يعد ليوم الفزع والحرب، واضح أن المطابقة حاصلة بين كلمة يصان التي هي من قبيل الأفعال وكلمة مبذول التي هي اسم مفعول .

وقد ترد المطابقة بين فعلي امر .

يقول تعالى :﴿ **فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف** ﴾(٢) فهذا تخيير منه تعالى للمطلق طلاق غير بائن أن يراجع عند مشارفة آخر العدة بحسن معاشرة أو بالفرقة ، لكن في غير إضرار .

---

(١) الطراز جـ٢ ص ٣٨٠ .   (٢) الطلاق : الآية [٢] .

ومن هذا الضرب كذلك قوله تعالى خطابا للرسول ﷺ ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ..**﴾ (١) فقد حصلت مطابقة هنا ايضا بالجمع بين فعلي أنقص وزد، وكلاهما فعل أمر فالمراد تخييره ﷺ بين أن يقوم نصف الليل أو أقل منه أو اكثر .

ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **هذا عطائنا فامنن أو امسك بغير حساب** ﴾ (٢) ومجئ هذين الأمرين عقب تفصيل مامنح سليمان عليه السلام من قبله تعالى وما بينهما من مقابلة تؤذن بتمام معنى التخيير لسليمان عليه السلام وأن له أن يفعل فيما وهب من ذلك الفضل مايشاء، وذلك يشير إلى تمام الفضل منه تعالى على سليمان عليه السلام وتحقيق لمعنى تمام الاجابه لما سبق ودعا به ربه : ﴿ **ربه هب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي .** ﴾ فمن تمام الملك الموهوب أن يبقى للمالك له ارادة التصرف فيه دون حظر، وقد أذن لسليمان بذلك على مايشير إليه بناء التركيب في قوله تعالى : ﴿ **فامنن أو امسك** ﴾ لكن يشعر تقديم فعل المن على فعل الإمساك إلى معنى أولوية الإنفاق مما وهب لما أن ذلك يدخل في باب المطلوبات الشرعية وهذا المعنى لاينافي مايفيده صريح التركيب من معنى التخيير بين الفعلين أصلاً .

بين الحروف :

وكما تكون المطابقة بين الأسماء وبين الافعال تجري كذلك بين الحروف متى يكون أو يلحظ بين معني الحرفين تقابل. فمثلا « من » للإبتداء و« إلى » للإنتهاء ، وبهذا الاعتبار اذا جمع بينهما في كلام واحد يحدث الطباق فنجد قوله تعالى:﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى**﴾(٣) يدخل في الطباق، اذ الجمع بين [من]

---

(١) المزمل : الآية [١، ٢، ٣، ٤]   (٢) سورة ص : الآية [٣٩] .

(٣) الاسراء : الآية [١] .

الدالة على الأبتداء وبين « إلى » الدالة علي الانتهاء يحقق معنى المطابقة ، وكذا الجمع بين الحرفين اللام التي يفهم منها معنى النفع وعلى المأخوذ منها معنى الضرر نظير قوله تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفسا إلا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت**﴾[١] فالمطابقة هنا بين اللام وعلى، لان اللام للملك المؤذن بالانتفاع ، وعلى للأستعلاء المؤذن بالتحمل والضرر، ويلحظ هنا أن فعل الكسب جاء مع اللام على حين ورد فعل الاكتساب في حيز على، ومع أن الفخر ينقل عن أكثر أهل اللغة عدم التفريق بين الفعلين كما أن القرآن الكريم شاهد لذلك، حيث ورد فعل الكسب مرادا به الخير أو الشراء ومايعم الامرين لكن لحظ صاحب الكشاف مغزى مع خصوص هذا السياق حيث خص التركيب المفيد للنفع والخير بالكسب على حين خص مايفيد الشر والضرر بالاكتساب، لأن الاكتساب فيه معنى الكلفة والتعمل فكان لهذا بجانب الشر أنسب ولما كان جانب الخير كلفه معه خص بما هو أنسب به[٢] .

ومن هذا الضرب مايؤثر عنه ﷺ [النظرة الأولى] لك ، والثانية عليك . فقد جمع في هذا القول الشريف بين اللام الدالة على نفي الإثم والتهمة، حيث لم يقصد بتلك النظرة اقتراف محرم ، بل كانت عفوا ، وبين « علي » الدالة على وقوع الضرر والإثم ، حيث كانت هذه النظرة صادرة عن عمد وقصد غير مباح وعلى هذا كانت المطابقة بين الحرفين من حيث كانت دلالاتهما متضادة

فأن لم يقصد بالحرفين معنا تقع به المقابلة فلا طباق ، فكما أن الحرف الواحد يدل على أكثر من معنى: تتداخل معاني الحروف ، والحاكم في ذلك السياق والغرض المراد .

ومما يجري على هذه الصورة وهو من مشهور مايستشهدون به قول جميل

---

(١) البقرة : الآية [٢٨٦] .　　　(٢) الكشاف جـ ١ ص٤٠٨

على أنني راض بأن أحمل الهوى

وأخلص منه لاعليّ ولاليا

والمطابقة هنا حاصلة من الجمع بين علي الثانية واللام في قوله « ليا » لأن علي الأولى في صدر البيت بمعنى مع ، يريد أنه قد تحمل في أمر حبه مايوجب مدحه والثناء عليه ، غير أنه يرضى بأن يخلص منه وليس عليه ذنب ولا له مدح .

ويقول آخر :

ويوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نسر

طباق السلب :

وكما كان الطباق فيما سبق بين طرفين موجبين وهو مايعرف بطباق الإيجاب يكون كذلك والطرفان غير مثبتين بأن يدخل عليهما نفي أو نهي .

فمثال منفيين قوله تعالى : في شأن تقرير وتحقيق أمر وحدانيته تعالى وتفرده عن سائر الخلق وانعدام الشبيه أو النظير ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ (١) فلانه سبحانه قد وصف نفسه بالأحدية ، والشأن في ذلك أن يخالف الحال معه سبحانه ماعليه أمر غيره من الخلق جميعاً فشأن الخلق أنهم يتوالدون ، وإذا كان الغالب في حقهم أنهم يولدون ويلدون .

وربما كان منهم من لايلد ، لكن لما كان سبحانه على غير مثال كانت تلك المطابقة الحاصلة من نفي كل من الأمرين عنه جميعا محققا لهذا الغرض اذ لاأحد سواه فحاله سبحانه على هذا النحو من أنتفاء الأمرين ، فثبت بذلك أحديته على نحو ماشرح به النظم الكريم:﴿ **قل هو الله أحد**﴾. كما صح بذلك ماختتم به السورة الكريمة حيث لايوجد من يكافئه أو يماثله أو يشاكله [**ولم يكن له كفوا احد**] (٢) .

---

(١) الاخلاص : الآية [٣] .

(٢) سورة الإخلاص الآية [٤] .

ويقول سبحانه وتعالى في سياق بيان حال من أحوال تلك الشجرة التي يوقد بها المصباح الواردة في سياق تمثيل نوره تعالى الذي يعم السموات والأرض : ﴿ **يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية** ﴾(١).

حيث نفي عن تلك الشجرة كونها شرقية أو غربية ، فحصل بذلك طباق السلب بنفي المتضادين .

ويقول سبحانه وتعالى في وصف حال من يصلي النار وأنه مخلد فيها : ﴿ **ثم لايموت فيها ولايحيا** ﴾ (٢) . فالموت والحياة كلاهما منفي وهما ضدان فكان بذلك طباق السلب ، فهؤلاء الذين حكم عليهم بالنار لايمتون حقيقة، لأن النار مأواهم أبدا ، وأما انتفاء الحياة عنهم مع كونهم في الحقيقة أحياء فيها : فلقصد أفادة المبالغة في وصف سوء حالهم ومايلحقهم من شدة العذاب، حتى لكأنهم غير أحياء من حيث أن حياتهم غير طيبة ..

وأما طباق السلب الحاصل بالنهي الداخل على الطرفين فنظيره قوله تعالى : ﴿ **ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط....** ﴾ (٣) حيث النهي هنا داخل على من جعل اليد مغلولة والمراد بذلك الإمساك والبخل وأيضا على بسط اليد والغرض الاسراف والتبذير وبين الامرين تضاد ، فكان بذلك طباق السلب، والغرض من هذا النهي عن كل من الإفراط في البخل وكذا التفريط في المال ليفهم من ذلك أن المباح ماكان بين الأمرين ، وهو المشار إليه صريحا في سياق آخر ويدخل فيما نحن فيه أيضا : يقول تعالى ﴿ **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾(٤) ، فهذا من أوصاف أهل الإيمان فلابخل ولاإسراف ، بل أمرهم عل الاقتصاد والانفاق في اعتدال وعلى الوجه المقبول شرعا .

---

(١) النور : [٣٥] .
(٢) الأعلى : [١٣] .
(٣) سورة الإسراء [٢٩] .
(٤) الفرقان:الآية [٦٧] .

طباق الإيجاب والسلب :

ويتحقق هذا الضرب بإثبات أحد طرفي الطباق من جهة وسلبه من جهة أخرى، سواء كان طريق السلب النفي أو النهي، وسواء كان ذلك بين الأفعال أو الأسماء ، وهذا مفاد ماذكره أبو هلال تعريفا لهذا الضرب وأخذه عنه صاحب بديع القرآن يقول صاحب الصناعتين : [وهو بناء الكلام على نفي الشئ من جهة وإثباته من جهة أخرى، أو أمر بشئ من جهة ونهي عنه من جهة غير تلك الجهة] (١) . وإن كان ماذكرته أولا أوجز مع وفائه بالغرض.

وأما قول الخطيب : [هو الجمع بين فعلي مصدر واحد ، واحدهما مثبت ، والآخر منفي، أو أمر ونهي] فغير مسلم ، لكونه يحصر هذا الضرب في الأفعال مع أنه يرد في الأسماء كذلك .

فمن شواهد السلب بالنفي في الأفعال قوله تعالى : ﴿ **وماريت اذ رميت** ﴾ (٢) . حيث جاء الفعل [رما] مثبتا مره ومنفيا مرة أخرى، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ...** ﴾ (٣) فالفعل [يعلمون] جاء منفياً من جهة بأعتبار عدم العلم بحقائق الأشياء، وجاء مثبتا بأعتبار أن علمهم متعلق بظاهر الأمور فحسب، فكأن المعنى : ولكن أكثر الناس يجهلون ، فحصل بذلك معنى الطباق .

ويدخل في هذا ماورد حين قيل لابن عمر - رضي الله عنهما : ترك فلان مائة ألف ، فقال : ولكنها لاتتركه ومن ذلك أيضا قول الحسن البصري توبيخا لهؤلاء الذين ركنوا إلى المعصية أما تستحيون من طول مالا تستحيون .

---

(١) الصناعتين ص ٤٢١ وينظر بديع القرآن ص ١١٦ .

(٢) سورة الأنفال : الآية [١٧] .

(٣) سورة الروم الآيتان : [٦ . ٧] .

ومن شواهد ماكان بين الأمر والنهي قوله تعالى: ﴿ **فلاتقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما . وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة .** ﴾ (١) . فانه سبحانه نهى الولد عن أن يقول للوالدين أدنى قول مؤلم ، أو مافيه غضاضة ، وأمره بالقول الكريم وخفض الجانب لهما ذلا وتواضعا، فأمره سبحانه بأمرين ، ونهاه عن أمرين ، وكقوله تعالى ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾(٢)

ومن شواهد السلب بالنفي شعرا قول الشاعر :

جزعت ولم أجزع من البين مشفقا

وعزيت قلبا بالكواعب مولعا

وقول آخر :

وننكر ان شئنا على الناس قولهم

ولاينكرون القول حين نقول

وأما ماكان من هذا الضرب بين الأسماء فنظير قوله تعالى في سياق التدليل على طلاقة قدرته تعالى المصاحبة لسائر أطوار الخلق: ﴿ **ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فأنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ..** ﴾ (٣).

فقد وردت كلمة مخلقة مثبتة أولا ومنفية بغيرثانياً ، وهي من قبيل الأسماء والغرض من وراء تلك المطابقة على هـذا النحو : الاشارة إلى بليغ

---

(١) الإسراء : الآية [٢٤] .
(٢) المائدة الآية [٤٤] .
(٣) الحج : الآية [٥] .

قدرته سبحانه حيث يتم التخليق في الرحم إن شاء تعالى لهذا الخلق التمام، أو يقذفه الرحم لغير تمام حتى وإن أمضى بعد أطوار التكوين ليبين بالأمرين عظيم قدرته تعالى .

ومن هذا أيضا قوله تعالى في سياق أثبات القدره الإلهيه كذلك : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ..** ﴾[١] فكلمة [صنوان] وردت مرة مثبته ومرة أخرى منفية بغير ، والغرض أن النخيل منها ماينبت من أصل واحد شجرتان أو أكثر ، ومنها ماليس كذلك ، أو المراد : أن أشجار النخيل قد تكون متماثله متشابهه ، وقد لاتكون كذلك [٢] . وخلق الشجر على الحالين أدل على بالغ القدرة ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات** ﴾ [٣].

وأيضا ماورد في بيان حال الناس يوم الفزع الأكبر حين يبدون من اشتداد الأمر عليهم لما رأوه ، وبلوغ الانزعاج .مبلغاً وكأنهم لشدة الذهول سكارى، وإن كانوا في حقيقة الأمر ليسوا بسكارى : ﴿ **وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ..** ﴾ [٤] فالسكر هنا مثبت أولا، ثم نفي من بعد ذلك فكان بذلك طباق الإيجاب والسلب .

ومن شواهد هذه الصورة شعرا :

الى سالم الاخلاق من كل عائب
وليس له مال على الجود سالم

---

(١) الرعد : الآية [٤] .
(٢) التفسير الكبير جـ ١٩ ص ٩
(٣) سورة الأنعام [١٤١] .
(٤) الحج : الآية [٢] .

بل إن هذا التعريف يتسع لاجتماع الفعل والاسم من مادة واحدة وأحدهما مثبت والآخر منفي كقول مسلم بن الوليد .

هو البدر يغيبها تودد وجهها   إلى كل من لاقت وان لم تودد

ف « تودد » الأولى اسم مضاف إلى وجهها ، و« تودد » الثانية فعل أصله « تتودد » وقد دخلت عليه « لم » وهو حرف نفي وجزم وقلب كما يقول النحويون ، وهذا من طباق الإيجاب والسلب ولافرق بينه وبين ماسبقه من أمثله ، وبهذا نرى تجاوز تعريف الخطيب للقصد في هذا المجال .

الحقيقي والمجازي :

يرد الطباق وكل من طرفيه حقيقة ، أو كل منهما مجاز، أو احداهما حقيقة والآخر مجاز

وقد مر فيما سبق كثير من الشواهد التي عبر فيها عن طرفي الطباق بألفاظ الحقيقة ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ **ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ..** ﴾ [1] حيث ترى أن اطراف هذه المطابقات مما يجرى على الحقيقة .

وأما الطباق المجازي فما كان طرفاه غير حقيقيين.أي استعمل اللفظ في غير معناه الاصلي ومنه قوله تعالى : ﴿ **أومن كان ميتا فاحييناه ..** ﴾ [2] أي ضالا فهديناه .. فالموت والأحياء لفظان مجازيان . ومنه قوله تعالى خطاباً لرسول الله ﷺ في قص مآل إليه حال تلك القرى الظالم أهلها : ﴿ **ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ..** ﴾ [3] .

---

(١) فاطر : الآيات [١٩ – ٢٢] .   (٢) سورة الأنعام : الآية [١٢٢] .
(٣) سوره هود الآية [١٠٠] .

واذا كان طمس هذه القرى ومحوها بحيث لايبقى منها سوى آثار دارسة وأطلال كافياً في أخذ العبرة لامثال هؤلاء المعاندين للرسول ﷺ ولدعوته وزاجراً لهم عن المكابرة والتبجح باستنزال العذاب ، وإذا كان في بقاء بعض معالم هذه القرى التي أهلك أهلها بظلمهم كافياً في الشهادة على ماكان عليه أولئك الغابرون وتمكنهم من امور الحياة بما لم يتح مثله لهؤلاء المعاندين من مشركي مكة ومن على طريقتهم وفي ذلك اعتبار ايضا، فمن تمام الاعتبار والزجر أن يوجد الحالان معاً حتى لايبقي من بعد المحو الذي تقتضيه حكمته تعالى، فحيناً يعم الهلاك المكان وساكنيه وأخرى يخص الهلاك أولئك الظلمة ، أما المكان فيبقي على الزمان، أو تبقى معالمه دليل صدق على ماأخبر به القرآن الكريم ، كما هي في الوقت ذاته دليل قدرته وشاهد اعتبار لمن لم يركبه شيطان المكابرة ولمن لم تأخذه العزة بالإثم .

والمهم أنك ترى طرفي المطابقة هنا: [قائم وحصيد] على طريق المجاز والاستعارة : شبه مابقي من القرى بالزرع القائم على ساقه ، وماعفا وبطل بالحصيد، ثم إن في التعبير بخصوص لفظ قائم فيما تدل عليه ولفظ الحصيد فيما تدل عليه أيضاً في هذا السياق مغزى يناسب الغرض المسوق له الكلام ، فإن في لفظ [قائم] مايشير إلى معنى النهوض أيضاً وتأتي كلمة حصيد لتدل على ما آل إليه حال تلك الديار وأهلها وماصاروا إليه ، فهم وديارهم قد أصبحوا شتاتاً مفرقين في باطن الأرض التي كانوا عليها وآثار ديارهم مبثوثة ومنتشرة وهي تصور ما اضحى عليه الأمر بعد ماكان المكان عامراً بالزرع والعمارة ، وفي هذه الحال نضرة الزرع وينعه وإثماره ، كل ذلك أمارات نعيم الله تعالى عليهم، فلما أن جحدوا ولم يشكروا سيرهم الله سبحانه وتعالى هم ومظاهر نعيمهم إلى هذه الحال التي يمثلها ذلك النبات بعد أن يجف فيحصد فلا نماء له ولانفع به ، وإنما هو ملقي ومنثور فهم ونعيمهم أهلكهم الله فجميعهم مهلك ومحصود، لكن «حصيد» هنا تقوم

بأداء معنى المبالغة المرعية في مثل هذه المقامات .

ومما يدخل في هذا الضرب أيضاً قول الشاعر :

لقد احيا المكارم بعد موت ... وشاد بنائها بعد أنهدام

فالإحياء والموت والتشييد كلها ألفاظ معبر بها عن معنى مجازي هو المراد .

وقد يجمع في اللام بين الطباق الحقيقي والطباق المجازي نظير قوله تعالى:﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء أهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾ (١) . فهمود الأرض . وأهتزازها ضدان ، لأن الهمود سكون خاص ، والاهتزاز المراد هنا حركة خاصة أيضا وهما مجازان ، كما أن الربو والإنبات ضدان ، فبينهما طباق حقيقي اذ الأرض تربو حقيقة عند نزول الماء عليها . وعلى ذلك فقد اشتمل النظم الكريم على طباقين وقد كان طرفا أحدهما مجازيين على حين كان طرفا الآخر منهما حقيقين .

من حيث الظهور والخفاء :

قد تكون المقابلة بين طرفي الطباق واضحة وربما خفي أمر التقابل حين لايكون التضاد ظاهرا في الطرفين حقيقة وأنما يفهم ويدرك بأعتبارخاص ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا..** ﴾ (٢) فلأن الغرق من صفات الماء ، فكأنه جمع بين الماء والنار (٣) أو يقال: لما كان يلزم من دخول النار الاحراق فحصل بهذا المطابقة بين الاغراق بالماء والاحراق بالنار .

---

(١) الحج : الآية [٥]   (٢) نوح : الآية [٢٥] .

(٣) البرهان في علوم القرآن جـ ٣ ص ٤٥٦ .

ومن الطباق الخفي كذلك قوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا.** ﴾[١] فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر، وبهذا يكون في الكلام تدبيج بديع،وهو من ضروب الطباق وملحقاته.وسيجئ له حديث خاص قريبا

وجعل بعضهم من هذا قوله تعالى: ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾[٢] . لأن معنى القصاص القتل . فصار القتل سبب الحياة قال ابن المعتز وهذا من املح الطباق وأخفاه [٣] .

اللفظي والمعنوي :

مامضى من الصور كانت المطابقة فيه بين الألفاظ سواء كانت حقيقية أو مجازية وهناك نوع من الطباق يسمى بالطباق المعنوي، أي ماكانت فيه المقابلة بين اللفظ وضده في المعنى ، لافي ظاهر اللفظ ، ومنه قولــه تعالى : ﴿ **ان أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون.** ﴾[٤]. فان المعنى: إن الله يعلم إنا لصادقون ، ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ..** ﴾[٥] فلما كان البناء رفعا للمبنى قوبل بالفراش الذي هو خلاف البناء، فكان بين اللفظين بأعتبار المعنى تطابقا

ومن ذلك ايضا قوله تعالى في قصة الجن وبيان حال انفسهم من حيث الإيمان والصلاح والكفر والفساد : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك** ﴾[٦] فالمطابقة حاصلة هنا بين لفـظ الصلاح ومرادهـــم مـن لفـــظ [دون ذلك] إذ يقع على مايقابل لفظ [الصالحون] دون شك ، وإن لم يصرح بما هو الظاهر في المقابلة ، وكأن ذلك منهم رغوباً عن ايراد صريح لفظ الفساد جرياً منهم على سنن التأدب في الحديث والمخاطبة، حيث يقتضي العرف في مثل هذا تجنب ذكر ماهو صريح الدلالة علــى معانـــي

(١) يس : الآية [٨٠] . (٢) البقرة : الآية [١٧٩] . (٣) البرهان جـ ٣ ص ٤٥٧ ، البديع ص ٦٦١ .
(٤) يس الآية [١٥ ، ١٦] .
(٥) سورة آل عمران [٢٦].
(٦) البقرة الآية [٢٢]

الشر والفساد ومايجري هذا المجرى مادام عن ذكره مندوحة ، إما بذكر لفظ آخر يفهم منه المعنى، وإما بإسقاط اللفظ اصلا من الذكر والتعويل على القرائن ، لنعود مرة أخرى إلى اللفظ الوارد في حديث الجن والمقابل بمدلوله من حيث القصد فإن لفظ دون ذلك يؤدي مايؤديه لفظ الفاسدون ونحوه اذا قدرناه مكانه ويحصل بهذا المطابقة، اذ ليس هناك ماهو غير الصلاح سوى الفساد ،لكن في إيثار التعبير بكلمة دون في هذا السياق مايشعر اكثر بأمثال معاني الغضاضة والتدني والاستحقار من حال هذا الفريق من الجن ممن لم يؤمنوا وآثروا طريق الفساد والدون .

ومن ذلك الضرب كذلك قوله تعالى في شأن من دخل الإسلام نفاقاً لتحصيل نفع عارض له : ﴿ **فإن اصابه خير اطمأن به وإن اصابته فتنة انقلب على وجه ..** ﴾[1] فهذا تصوير لحال من كان إيمانه على مثل تلك الحال وأنه في اضطراب دائم فإيمانه غير راسخ ، اذ لم يصر الإيمان عقيدته ، بل صار هو إلى الإسلام تظاهرا طمعاً في تحصيل مآرب فإن وقع له شئ من ذلك استقر واستمر على حاله من النفاق، وأما إن وقع خلاف ذلك مما لايعتقد فيه خيراً لمجيئه على خلاف حسبانه ولو في ظاهر الحال اذا به يفضح حال نفاقه فيخرج عن الإسلام أصلاً ويعود إلى صريح الكفر كما كان .

والمهم أن المطابقة في هذا النظم الكريم حاصله بين لفظ الخير ومعنى الفتنه بالنظر إلى أن مايقع على مثل هذا المنافق مما لايبدو معه معنى النفع الظاهر المحقق له مايطمح إليه ومايطمع فيه ، إنما هو شر فلفظ الفتنـة إذن

---

(١) سورة الحج : الآية (١١)

هنا يقوم مقام لفظ الشر المقابل لفظ الخير لتحصل المطابقة بالجمع بينهما، لكن من وراء التعبير بلفظ الفتنة معناً جليلاً ، وذلك أن الله تعالى كما يبتلي عباده ويختبرهم بالشر، كذلك يبتليهم ويختبرهم بالخير والنعمه : ﴿ **ونبلوكم بالخير والشر فتنة** ﴾ فالفتنة والأبتلاء اذن حاصلة بأحد الأمرين وأهل اليقين على ادراك من هذا ، وأما أهل النفاق فالخير عندهم فى مايرونه هم خيراً ومايتحقق لهم به نفع دنيوي ومتاع ظاهر، وإما غير هذا مما قد يغيب عن العباد وجه الخيرية فيه والحكمة من ورائه فهو بلاء لاابتلاء وشر خالص لاخير فيه فليسارعوا اذن إلى كفرهم الذي خرجوا عنه حيناً رياءاً، وهم بذلك في الحقيقة قد اوصلوا انفسهم إلى تمام الخسران ، فلاهم حصلوا بإسلامهم المدعي نفعاً كما كانوا يقدرون ويريدون ، ولاهم محصلون شيئاً من ثواب الآخرة فقد نقصوا وارتدوا ، فصاروا بهذا وذاك خاسرين للدنيا والآخرة ولاريب في أن ذلك إنما هو الخسران المبين والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولازمهريراً** ﴾ [1] فالزمهرير على المشهور في تفسيره: البرد الشديد وبذلك تحصل المقابلة بين هذا اللفظ وبين لفظ : [شمساً] حيث أن المراد بها الحر الشديد ، إذ [المعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل لاحار محم ولابارد مؤذ] [2] .

ولعل التعبير عن الحر بلفظ الشمس لقصد المبالغة في نفي شدة الحر بإعتبار أن الشمس هي مصدره الأصيل

وأما على ماقيل من أن المراد من الزمهرير القمر وذلك معروف في بعض لغات العرب نظير قول الشاعر:-

وليلة ظلامها قد اعتكر ... قطعتها والزمهرير مازهر

---

(١) سورة الإنسان ، الآية [١٣] .

(٢)أبو السعود جـ ٩ ص ٧٣ .

والمعنى : أن الجنة ضياء فلايحتاج فيها إلى شمس ولاقمر (١) .

وعلى هذا فالكلام خارج عن حد المطابقة أصلا إلى مراعاة النظير ، وإن كان الحمل على مؤدى المطابقة هو الأظهر والمتبادر.

وقول الشاعر :

لهم جل مالي ان تتابع لي عني   وان قل مالي لأكلفهم رفاد

ففيه ضدان : تتابع الذي في معنى وفرة المال وكثرته – والكثرة ضد القلة ، وبذلك تكون المطابقة في المعنى .

أيهام التضاد :

وقد الحقوا بالطباق ماأسموه أيهام التضاد، وهو ماجمع بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل مفهومهما الحقيقيان ، واستشهدوا لذلك بقول الشاعر :

لاتعجبي ياسلم من رجل   ضحك المشيب برأسه فبكى

فضحك المشيب هنا عبارة عن ظهور الشيب ولاتقابل بين البكاء، وظهور الشيب لكنه عبر عنه بالضحك الذي يكون معناه الحقيقي مضادا لمعنى البكاء .

وقول ابن رشيق :

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا   نجوم العوالي في سماء عجاج

فأن التقابل أنما هو بين معنى الإطفاء والإيقاد الحقيقين ، وأما المجازيان فلا ، لأن اطفاء الشمس عبارة عن اثارة العجاج حتى على الشمس ، وايقاد نجوم العوالي عبارة عن تشريع أسنه رماحهم . ولامضادة بين هذين المعنيين .

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ١٩٧ .

التدبيج

كما الحقوا بالطباق ماأسموه بالتدبيج وارادوا به مايذكره المتكلم من الوان يقصد الكنايه بها، أو التورية بذكرها عن أشياء من نحو مدح، أو وصف أو نسيب أو هجاء، أو لبيان فائدة الوصف بها .

ومن هذا الضرب قوله تعالى [**ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود**] فإن المراد بذلك الكناية عن المشتبه والواضح من الطرق، لأن الجبال البيضاء هي الطريق المسلوك الذي كثر السير فيه ، وهي أوضح الطرق وأبينها ولهذا قيل ركب بهم المحجة البيضاء ، ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء التي كأنها في الخفاء والإلتباس ضد البيضاء في الظهور والوضوح ، ولما كانت هذه الألوان الثلاثه في الظهور للعين طرفين وواسطة ، فالطرف الأعلى في الظهور البياض، والطرف الأسفل في الخفاء السواد، والأحمر بينهما على حكم وضع الألوان في التركيب، وكانت الوان الجبال لاتخرج عن هذه الألوان الثلاثه، والهدايه بل علّم نُصّب للهداية اتت الآية الكريمة على هذا التقسيم ، فحصل فيها التدبيج وصحة التقسيم ، وهذه الآية الكريمة مسوقة للإعتداد بالنعم على ماهدت إليه من السعي في طلب المصالح والمنافع والفرار من المضار والمعاطب .

ومنه حديث مامن عبد يموت فيترك صفراء او بيضاء إلا جعل الله بكل قيراط منها صفحة من نار] ذكر الصفراء والبيضاء وكني بالأولى عن الذهب والثانية عن الفضة [1] .

ومن ذلك قول أبي تمام يرثى شهيدا :

غدا غدوة والحمد نسج ردائـــه	فلم ينصرف إلا وأكفانـــه الأجـــر
تردي ثياب الموت حمرا فماأتى	لها الليل إلا وهي من سندس خضـر

---

(١) حاشية المرشدي جـ ٢ ص ٨٢

كأن بني نبهان يوم وفاتـــــه نجوم سماء خر من بينهـا البـــدر
يعزون عن ثاو تعزي به العـــلا ويبكي عليه البأس والجود اوالنصــر
وأني لهم صبر عليه وقد مضى إلى الموت حتى استشهد هو والصبر

ومراده في البيت الثاني أن هذا المرثي قد أرتدى الثياب الملطخة بالدم حيث قتل استشهادا ، فلم يمض يوم قتله ، ولم يدخل في ليلته إلا وقد صارت تلك الثياب خضرا من سندس الجنة والشاهد هنا في البيت من تدبيج الكناية ، فإنه ذكر فيه لون الحمرة والخضرة ، والمراد من الأول الكناية عن القتل ، ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة .

ويعقب صاحب معاهد التنصيص على هذا البيت بقوله : ولو قال أبو تمام :

تردى ثياب الموت حمرا فما أختفى
عن العين إلا وهي من سندس خضر

لكان أبلغ في القصد وأبدع ، فإنه جعل غاية تبديلها بالسندس دخوله في الليل، وهذا ليس بمعلوم ، فان الميت اذا غيب بالدفن عن الأعين تبدلت أحواله إلى خير أو شر والعياذ بالله تعالى . ويشهد لذلك مــاورد أن الميـت بمجرد سترة عن الأعين يأتيه ملكا السؤال (١) .

ومن التدبيج قول الحريري فأغبر العيش الأخضر ، وازور المحبوب الأصفر ، وأسود يومي الأبيض، وابيض فودي الأسود حتى رثي لي العدو والأزرق فياحبذا الموت الأحمر ، فالمعنى القريب للمحبوب الأصفر هو الإنسان الذي به الصفرة والبعيد هو الذهب وهو المراد ههنا والتورية واقعة فيه فقط (٢) .

---

(١) معاهد التنصيص جـ ٢ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٣) حاشية المشردي جـ ٢ ص ٨٢ .

ومن طباق التدبيج ايضاً قول عمرو بن كلثوم :

بأنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا

ويعلق على هذا البيت صاحب معاهد التنصيص ايضا بقوله لو قال :-

من الأسل الظماء يردن بيضاً ونصدرها حمرا قد روينا

لكان أبدع بيت للعرب في الطباق، لأنه يكون قد طابق بين الإيراد والاصدار، والبياض والحمرة، والظمأ والري، وقد تم لأبي الشيص :

فأوردها بيضاً ظماء صدورها واصدرها بالري ألوانها حمرا

فصار أخذه مغفورا بكمال معناه ، وماأحسن قول ابن حيوس :

وتملك العليـاء بالسعي الـذي اغناك عن متعالم الأنسـاب

ببياض عرض واحمرار صوارم وسواد نقع واخضرار رحـاب

وأفخر بعم عم جود نوالـه وأب لأفعال الدنيـة أبـي [1]

وأما ماكان على مثال قول الشعر:

بصفر تراقيها وحمر اكفها وسود نواصيها وبيض خدودها

فلايدخل في التدبيج ، وان كان فيه مقابلة بين لوني الصفرة والحمرة وكذا بين لوني السواد والبياض، لفقد شرطه حيث لايراد بتلك الألوان هنا معنى التورية أو الكناية بل المراد بها معانيها الحقيقية .

ويتضح من تعريف هذا الضرب وشواهده أنه لايخرج عن باب المطابقة ، أو مايلحق به ، وعلى هذا فما ذكره صاحب بديع القرآن من كون هذا الضرب مما ابتكره غير مستقيم ، لأن صوره يمكن ادخالها تحت باب الكناية أو التورية أو المطابقة ، كما أن من صوره مايمكن ادخالها تحت المخالف الذي الحقه ابن سنان بالطباق [2] وعلى ذلك جرى الخطيب [3] وأكثر

---

(١) معاهد التنصيص جـ٢ص٨١ (٢) سفر الفصاحة ص ٢٢٠. (٣) الإيضاح ص ٢٥٨ .

المتأخرين فالسعد يرى ان التدبيج داخل في تفسير الطباق لما بين اللونين من التقابل، فإنهم فسروا المتضادين في هذا الباب بالمعنيين المتقابلين في الجملة على نحو ماسبق ايضاحه في بيان تعريفهم لهذا الباب .

كما أن ابن الأثير يذكر أن احسن مطابقة قول الشاعر :

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

وهو مما يدخل في مفهوم التدبيج حيث قصد من وراء المقابلة بين لوني البياض والحمرة الكناية عن شجاعتهم وقتل أعدائهم .

ترشيح المطابقة بألوان بلاغية أخرى

لاشك في أن للمطابقات على حدتها بلاغتها، حيث يراد بها معنى وغرض وقد ترد وقد صاحبت ألوانا بديعية أو بلاغية أخرى، الأمر الذي يزداد معه الكلام حسنا ، والمعنى وضوحا وبيانا ، حيث تتكامل صور التعبير وتتناصر في الوفاء بتمام الغرض المراد، ويتضح هذا في مثل قوله تعالى : ﴿ **له الحمد في الأولي والآخرة** ﴾ (١) فإنَّ في هذا النظم الكريم مع المطابقة بين لفظي الأولى والآخرة بديع الإدماج حيث أريد المبالغة في الحمد ، إذ أفرد نفسه سبحانه بالحمد، حيث لايحمد سواه في كلي الحالين .

وكذا قوله تعالى : ﴿ **تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ (٢) . حيث قرنت المطابقة بصورة العكس الذي لايدرك لوجازته وبلاغته وقرنت أيضا بمبالغة التكميل التي لاتليق بغير القدرة الإلهية ، فإن في العطف بقوله : ﴿ **وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾

---

(١) سورة القصص الآية [٧٠] .

(٢) سورة آل عمران : الآية [٢٧] .

دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال التي لايقدر عليها غيره قادر على أن يرزق من يشاء من عباده بغير حساب، وهذا من مبالغة التكميل المشحونة بالقدرة الربانية ، فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقة . والعكس الذي لايدرك لوجازته ، ومبالغة التكميل .

وتأمل المطابقة المقرونة بما يقويها من صور البديع الأخرى في قول أمرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا　　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

فالمطابقة بين الإقبال والإدبار، ولكنه لما قال: معا زادها تكميلا في غايةالكمال، فإن المراد بها قرب الحركة في حالتين الإقبال والإدبار، وحالتي الكر والفر ، فلو ترك المقابلة مجردة من هذا التكميل ما حصل في الشعر هذه البهجة ، ولا هذا الموقع ، ثم إنه استطرد بعد تمام المطابقة ، وكمال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعي ولم يكن قد ضرب لأنواع البديع في بيوت العرب، ولا أمتد له سبب، وقد اشتمل بيت أمرئ القيس على المطابقة والتكميل والاستطراد .

وقول ابي الطيب :

برغم شبيب فارق السيف كفه
وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه
رفيقك قيسي وأنت يمان

فقد رفع أبو الطيب قدر المطابقة وزادها بهجة بمجاورتها للتورية، فالمطابقة وقعت في قوله : قيسي ويمان لأن العداوة بين قيس ويمان كانت على أشدها ، وقرنها بالتورية لأنه أراد بيمان السيف فوري به عن الرجل

المنسوب إلى اليمن .

ومن ذلك قول الإرجاني الذي شد فيه أزر المطابقة ببديع الشعر والنثر في قوله :

تعلق بين الهجر والوصل مهجتي

فلا أربي في الحب أقضي ولانحبي[١]

وسيأتي لهذا مزيد وإيضاح إن شاء الله حين الحديث عن شعر ابي تمام وطريقته ، ومالمتازت به مطابقاته ومقابلاته .

* * *

---

(١) حاشية المرشدي على عقود الجمان جـ ٢ ص ، والصور البديعية جـ ٢ ص ٩٨ .

المقابلة

سبق أن الطباق أنما يكون بالجمع بين متقابلين ، كما سبقت الاشارة إلى أن أبن الأثير والعلوي لايرتضيان مصطلح المطابقة لعدم الملاءمة بين المدلول اللغوي لهذا اللفظ والمراد به ، ويدخلانها في مفهوم المقابلة ، حيث إنها عندهما أنسب واعم ، وأن كان العرف البلاغي قد جرى على التمييز بينهما على ماسيتضح من خلال عرض وفهم الأمثلة والشواهد .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا** ﴾ (١) . ويقول ﷺ : [ان لله عبادا جعلهم مفاتيح الخير مغاليق الشر] . ويقول عبد الملك ابن مروان : ماحمدت نفسي على محبوب ابتدأته بعجز ، ولالمتها على مكروه ابتدأته بحزم .

وقال الشاعر :

ليل الشباب وحسن الوصل قابله   صبح المشيب وقبح الهجر والندم

فبالنظر في تلك النماذج نرى أن هناك تقابلا في كل منها بين أكثر من لفظين ، ففي النظم الحكيم الليل مقابل بالنهار، واللباس مقابل بالمعاش. وفي الحديث الشريف تقابل بين لفظي مفاتيح ومغاليق، وكذا بين الخير والشر وفي قول ابن مروان مقابلة بين الحمد واللوم ، ومحبوب ومكروه ، وعجز وحزم .

وفي قول الشاعر نراه قابل الليل بالصبح ، والشباب بالمشيب، والحسن بالقبح والوصل بالهجر اذن فقد وقعت المقابلة بين أكثر من لفظين في كل ماسبق، وهذا ماجرى العرف البلاغي على إطلاق المقابلة عليه ، وإن لم يخرجه ذلك عن باب المطابقة أصلا .

---

(١) سورة النبأ : الآية [١٠ ، ١١] .

وعلى ذلك يمكن أن يقال تعريفا لها: أن يأتي المتكلم بمعنيين متوافقين ، أو معاني متوافقه ، ثم يأتي بعد ذلك بما يقابل ماذكره أولا على الترتيب.

فالفرق بين المطابقة والمقابلة على هذا كون المطابقة حاصلة بالجمع بين أمرين فقط، بخلاف المقابلة فلا تكون إلا بالجمع بين أربع كلمات متقابلة أو أكثر .

كما أن اكثر أهل البلاغة والنقد قد نبهوا على وجوب الترتيب في المقابلة ، حيث يراعي مقابلة ماذكر أولا فيأتي بما يقابلة ، ثم بمقابلة ماذكر ثانيا، وهكذا ، غير أن قدامة بن جعفر لم يشترط الترتيب، فقد أورد قول الشاعر معتدا به في المقابلة .

أسرناهم وأنعمنـا عليهـم   وأسقينا دماءهم الترابا
فما صبروا لبأس عند حرب ولا أدوا لحسن يد ثوابا

مع أنه يلحظ أن الشاعر هنا قدم ذكر الأنعام على المأسورين ، وأخر ذكر القتل في البيت الأول، وأتى في البيت الثاني بعكس ذلك الترتيب، فقد قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب وأخر الثواب على حسن اليد، اللهم إلا أن يريد بقوله : ﴿ فما صبروا لبأس عند حرب ﴾ . القوم المأسورين اذا لم يقاتلوا حتى يقتلوا دون الأسر وإعطاء اليد، فان المقابلة حينئذ على شرط الترتيب[1]

ومهما يكن من أمر في فهم البيت وتوجيه المقابلة فيه يبقى الحق مع ابي الفرج اصلاً، فشرط الترتيب على مانراه لايتيسر الأخذ به على جهة التعميم المطرد، وإنما هو يجري على الغالب والأكثر في هذا الباب .

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٦ .

ومما جاء على خلافه قوله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾ [١].

فالفقر المذكور أولاً في وعد اللعين مقابل بالفضل المذكور ثانيا في وعد الكريم ، كما أن الأمر بالفحشاء المذكور ثانياً في الوعد الأول مقابل بالمغفرة في الوعد الحق .

وتقديم ذكر الفقر في جانب وعد من عليه اللعنه باعتبار أن الآية الكريمه وارده في سياق الحث على الإنفاق وإيثار الطيب من الرزق لهذا الغرض فالآية الكريمه تالية لقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ماكسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ [٢] ، ومعلوم أن حال الشيطان ابداً الإيعاذ بالمخالفة ، فحيث كان المأمور به هنا من قبله تعالى الحض على الصدقات: يكون من الشيطان التسويل بإيقاع وساوس الخوف من الفقر بهذا الإنفاق ، لهذا كان تقديم الوعد بالفقر أنسب للسياق .

ولما كان حصول المغفرة منه تعالى اولى في باب الرجاء لأن بها تمحي آثار المخالفات التي يقع فيها العباد بأمر الشيطان كان الوعد بالمغفرة حينئذ وسبق ذكره اشارة لهذا المعنى فإن من المعلوم أن درء المضار مقدم على جلب المنافع والفحشاء الآمر بها الشيطان تستتبع عقوبة من الله تعالى والعقوبة ضرر محقق ، لذا كان الوعد الكريم بالمغفرة اسبق .

ومن معجز هذا الباب قوله سبحانه وتعالى ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾[٣] . فانظر إلى

---

(١) البقرة : آية [٢٦٨] . (٢) البقرة : آية [٢٦٧] .

(٣) سورة القصص : آية [٧٣] .

مجئ الليل والنهار في صدر النظم الكريم وهما ضدان ، ومجئ السكون والحركة في عجزه ، وهما ضدان كذلك ، مع مقابلة كل طرف منه بالطرف الآخر على الترتيب، وكيف أنه سبحانه قد عبر عن الحركة بطريق الكناية بما أضاف إلى الكلام ضربا من المحاسن زائدا على المقابلة حيث عدل النظم الكريم عن لفظ الحركة المقابلة للسكون إلى لفظ ابتغاء الفضل لكون الحركة كما تكون لمصلحة تكون كذلك المفسدة ، وأما ابتغاء الفضل فهو حركة لمصلحة لاغير، والآية الكريمه سيقت في مقام الاعتداد بالنعم مما أقتضي العدول عن لفظ الحركة إلى مايدل عليها لكن بما هو أنسب وأدل على الغرض الذي كان من أجله جعل آيتي الليل والنهار، فحصل في الكلام بهذا ضرويا من المحاسن ، الا ترى أنه سبحانه قد جعل العلة في وجود الليل والنهار حصول منافع الإنسان ، حيث قال:[لتسكنوا] [لتبتغوا] بلام التعليل فجمعت هذه الآية الكريمة المقابلة والتعليل، وحسن البيان لمجئ الكلام متلاحما آخذا أعناق بعضه بأعناق بعض، وماتضمنته العبارة من النعم التي هي مع عظم شأنها بعض رحمته قرن هذا الكلام بحرف التبعيض : « ومن رحمتة » .

ومن نماذج هذا الضرب من الكلام النبوي الشريف ولنأخذ نصا مما قاله عليه الصلاة والسلام في تثقيف النفوس، وتقديم الطبائع وكيفية مسة للقلوب وأخذها برفق صوب مدارج الكمال الانساني والسمو الروحـــي ، قولـه عليـه الصـلاة والسـلام « **ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيقهون** »

نرى الأسلوب في هذا الحديث الشريف يقف وقفه يعيد بها المقطع الأول وهو قوله الا أخبركم ليستأنف بعد ذلك سبيل المقابلة فيذكر أبغضكم

إليّ في مقابل أحبكم في الشق الأول ، ويذكر أبعدكم مني مجالس في مقابلة أقربكم مني، ثم يذكر [الثرثارون المتفيهقون] ومقابلتهم بأحاسنكم اخلاقا الموطأون اكنافا .

والثرثارون الذين يكثرون الكلام تكلفا وخروجا عن الحد، وأصل هذه اللفظة العين الواسعة من عيون الماء، ويقول المبرد في لفظ المتفيهقون أنما هو بمنزلة قوله الثرثارون توكيدا له .

ولأن كان أسلوب المقابلة من الاساليب المحببة إلي النفوس حين يقود إليها الطبع ، فترد في الكلام سمحة منسابة فتعين على تجلية الحقائق، وأبراز معادنها فالقرب من مجلس رسول الله انما يساعد على بيان أهميته وقيمته وجود الصورة المعاكسة وهو البعد والنبذ والتجافي وكذلك الحب، ثم ان الموطئين أكنافا الذين يألفون ويؤلفون إنما تتجلى طبائعهم وجوهر أخلاقهم ورفق حديثهم ولين ألسنتهم وحسن سكونهم حينما يوجد في الصورة المقابلة هؤلاء الثرثارون المزعجون المتشدقون والمتفيقهون [١] .

* * *

(١) قراءة في الادب القديم ص ٢٨٠ .

صور المقابلة

يلحظ على ماذكروه متصلا بصور المقابلة أنه يقوم على الاعتبار العددي، فقد تقابل الكلمتان بكلمتين ، أو الثلاثة بثلاثة ، وهكذا . وعلى ذلك تكون صور المقابلة وتعددها .

وينبغي ان يشار هنا إلى أن الاعتبار العددي ذاته لايعد الأصل الذي يبني عليه بلاغة المقابلة واستحسانها ، أو عدم بلاغتها وردها على نحو مانجده عند بعض النقاد والكاتبين ، فإ الأصل المعتبر دائما في بلاغة الكلام توفيق المتكلم واهتدائه إلى الصورة التي تمكنه من التعبير عن معانيه وأغراضه على أتم وجه .

واذا كانت اساليب المقابلات في الكلام من أسباب حسنه لما فيها من إيضاح معانيه وتجيلة اغراضه ومقاصده على نحو مؤثر في النفس ومستميل لها بما يستدعي منها القبول، فذلك كله مشروط بأن تأتي على وفق الطبع دون تكلف ولاتزيد والا صار الكلام بها خرباً وصار زخرفا من القول لاتحمل معنى ولاتنهض بغرض .

وبعد هذا نعود إلي ماقالوا وما نود ذكره وإيضاحه حول صور المقابلة . يقول سبحانه وتعالي : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع** ﴾ [١] المقابلة هنا بين امرين . فالأعمى يقابله البصير ، كما أن الأصم يقابله السميع .

والغرض كما هو واضح بيان اختلاف حالي أهل الكفر والإيمان، فحال هؤلاء الكفرة حال العمي والصم وان كانت لهم في ظاهر الأمر أعين وآذان ، حيث لم يهتدوا بها إلى طريق الهدى كما لم يستجيبوا لداعي الإيمان على

---

(١) سورة هود الآية [٢٤]

خلاف ماكان عليه حال فريق الإيمان فقد استمعوا فأستجابوا وأهتدوا ، فكانوا بذلك جديرين بالبصر والسمع حيث انتفعوا بهما النفع الحقيقي الذي يعود عليهم بخيري الدنيا والآخرة .

وقد يقال لم آثر النظم الكريم التعبير عن هذا المعنى بطريق المقابلة دون أسلوب الطباق وذلك بأن يقال: مثل الفريقين كالأعمى والبصير، والأصم والسميع ، فيكون التركيب جامعا لطباقين .

والجواب عن ذلك على ماذكر الزركشي: انه تعالى لما ذكر انسداد العين اتبعه بأنسداد السمع ، ويضد ذلك لما ذكر انتفاء البصر أعقبه إنتفاء السمع. فما أتت الآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة والأتم في الإعجاز[١] .

ومما يجري على هـذا ذلـك نظير قولـه تعالـى ﴿ **فليضحكوا قليـلا وليبكوا كثيرا** .. ﴾ [٢] فقد قوبل أولا الضحك بالبكاء، كما قوبلت القلة بالكثرة .

ويقول ﷺ في مدح الانصار رضوان الله تعالى عليهم [انكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع، فقابل عليه السلام بين الكثرة والفزع بالقلة والطمع والغرض بذلك وصف الانصار بالإخلاص في الإيمان والنهوض بأعبائه والعمل على مقتضياته في غير التفات إلى تحصيل منافع خاصة ، فهم لم يدخلوا الإيمان تطلعا إلى تحقيق اغراض مادية على نحو ماكان الحال من أمثال المنافقين أو غيرهم من أهل الكتاب ممن تظاهروا بالإسلام رغبة في الحصول على نفع ، وإنما هؤلاء الانصار أقبلوا علي الإيمان بخلوص نية وسلامة قصد وحسن يقين فأستحقوا بذلك ماتضمنه هذا القول الشريف .

---

(١) البرهان جـ ٣ ص ٤٤٦ .   (٢) سورة التوبة : الآية [٨٢] .

ومن المقابلة على هذا النحو كذلك ، قول خالد بن صفوان يصف رجلا: ليس له صديق في السر، ولا عدو في العلانية .

ومن شواهدهم شعرا لهذا الضرب قول الشاعر يمدح من جمع من الرجال إلي وصول النفع منه لمن يصادق أو يحب تحقق الضرر منه لمن يبغضه أو يعادي لفرط قوته وشجاعته .

فتى تم فيه مايسر صديقه　　　على أن فيه مايسوء الأعاديا

وقد حصل بالمقابلة بين « يسر صديق، ويسوء الأعاديا » ، تمام الغرض الذي قصد إليه من وصف ممدوحه بالجمع بين وصفي الكرم والشجاعة في آن واحد .

ويقول آخر واصفا نفسه بسماحة الطبع وبالغ الكرم :

ويبق بعد حلم القوم حلمي　　　ويفني قبل زاد القوم زادي

فقابل بين أمرين وأمرين،حيث قال أولا يبقى بعد، وبعده قال : يفني قبل.

ومن شواهد مقابلة الثلاثة بالثلاثة قول الشاعر :

ماأحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا　وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

يحكي أن أبا جعفر المنصور سأل أبا دُلامة عن أشعر بيت قالته العرب في المقابلة ، فقال بيت يلعب به الصبيان وأنشد هذا البيت ، ويذكر صاحب بديع القرآن أنه لاخلاف في أنه لم يقل قبله مثله فقد قابل بين أحسن وأقبح ، والدين والكفر، والدنيا والإفلاس وهو من مقابلة ثلاثة بثلاثة [١]

---

(١) معاهدة التنصيص جـ ٢ ص ٢٠٧ .

ولاريب في أن هذا حكم لايتسير اقراره أو قبوله على هذا الإطلاق والتعميم بل إن هذا البيت نفسه يخرج عن باب المقابلة أصلا عند السكاكي حيث ألزم عند ذكر شرط مع أحد طرفي المقابلة ذكر مقابله مع الطرف الآخر منها ايضا (١). وقد اشترط مع الدين والدنيا الاجتماع، ولم يشترط في الكفر والافلاس ضده .

وأما ماكان على مثال قول ابي نواس :

أرى الفضل للدنيا وللدين جامعا

كما السهم فيه الفوق والريش والنصل

فيذكر بن رشيق أن الشاعر هنا قد زاد في المقابلة قسما لأنه قابل اثنين بثلاثة (٢).

والشاعر إنما يقصد أن الممدوح قد جمع بين الدين والدنيا ماينتفع به ، ومالابد للعاقل المكلف منه، كما يجمع طرفا السهم مالاغني للسهم عنه ، لأن الفوق موضع الوتر، والريش: الموصل ، والنصل: المصي، فشبه الممدوح بالسهم الجامع لمصلح الطرفين ، ولما كان الريش والفوق في طرف واحد كانا مقابلين للنصل، اذ هو الطرف الآخر، ولايضر تعدده ، فهو يريد الطرف الجامع لهما، علي أن الاخلال بمصلحة التقسيم في ظاهر اللفظ لايفسد المقابله ، فرب كلام وقع في ظاهر لفظه اخلال ببعض اقسامه لكون احد الأقسام مذكوراً دون ان يصرح بذكر مايقابله مع أنه مراعي من حيث المعنى كما هنا حيث قابل الدنيا والدين وهما طرفان ، بطرفي السهم، وهما الفوق والنصل وترك الريش في ظاهر اللفظ دون متابل .

---

(١)المفتاح ص ٢٢٥ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٨ .

ومن معجز المقابلة بين أربعة ماجاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسني فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى** ﴾ [١]

والمقابلة في هذا النظم الحكيم حاصلة بين من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى والتيسير لليسرى وبين من كان الأمر معه على الخلاف، وهو من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فكان له التيسير للعسرى ، وقد تكون بين خمس وخمسه كقول الشاعر :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وفي توضيح ذلك قالوا: ان الشاعر قابل بين أزورهم وأنثنى ، وسواد وبياض ، والليل والصبح ، ويشفع ويغري، ولي وبي .

والمعنى : أزور أحبتي في حماية الليل، وأعود تحت وشاية ضوء الصبح ، ففي كل من يشفع لي ويغري بين استعارتان مكنيتان كما ترى .

ومن مقابلة ست بست : قوله تعالى:﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ ثم قال تعالى :﴿ **قل أونبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله**﴾[٢]. قابل الجنات والانهار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بإزاء النساء في الدنيا، وختم بالحرث وهما طرفان متشابهان، وفيهما الشهوة والمعاش الدنيوي، وأخر ذكر الأزواج كما يكون في الترتيب الاخروي، وختم

---

(١) سورة الليل من الآية [٥ – ٩] .
(٢) سورة آل عمران : الآية [١٤ – ١٥] .

بالرضوان، وقد ذكروا لهذه الصورة من المقابلات قول الشاعر، وإن كان يرى عليه شئ غير قليل من التكلف :

على رأس حر تاج عز يزينه   وفي رجل عبد قيد زل يشينه

فان كل كلمة في الشطر الأول لها مقابل في الشطر الثاني .

وقد أوصلوا هذه الصور إلى مقابلة عشره بعشر ، والحق أن هذا تكلف مردود لايأتي عفو الخاطر إلا مع تعمل .

المقابلة الخفية :

قد يجئ نظم الكلام على غير صور المقابلة في الظاهر، لكن اذا تأملناه صار من أكمل المقابلات ، وذلك نظير قوله تعالى **﴿ إن لك ألا لاتجوع فيها ولاتعرى ، وأنك لاتظمأ فيها ولاتضحى ﴾** (١) فقابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحى، والواقف مع الظاهر ربما يميل إلى أن الجوع يقابل بالظمأ ، والعُري بالضحى .

والمدقق يرى هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة ، لأن الجوع آلم الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهرا وباطنا، وقابل الخلو بالخلو ، والاحتراق بالاحتراق(٢) .

العكس والتبديل :

وهو عبارة على مايذكرون في تحديده أن يعاد التركيب، لكن مع تغيير نظمه من حيث التقديم والتأخير ، ومن شواهدهم لهذا الضرب قوله تعالى : **﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾** (٣) **﴿ هن لباس**

---

(١) سورة طه الآية [١١٨- ١١٩]

(٢) البرهان في علوم القرآن جـ٣ص٦٤٥

(٣) سورة فاطر الآية [١٣] ، الحديد الآية [٦]

لكم وانتم لباس لهن ﴾ [١] **﴿ ماعليك من حسابهم من شئ ومامن حسابك عليهم من شئ ﴾** [٢] .

وقد الحقوا هذا ونظائره بالطباق ، كما حكم بعض أهل العلم على هذا الضرب بأنه من قبيل المحاسن اللفظية [٣] .

والحق أن هذا الاسلوب يدخل في صور المقابلة بناء على ماجرى عليه العرف في التفريق بين الضربين اذ قد حصل بإعادة التركيب المشتمل على الطباق مع المخالفة في الترتيب صورة من صور المقابلة .

كما أن الحق كذلك أن هذا الضرب له بلاغته ومغزاه والا فكيف نفسر ورود كثير من الشواهد له في النظم القرآني ، وان احتاج الأمر مع أساليب هذا الضرب إلى امعان النظر في المراد والغرض حتى يتيسر ادراك ماوراء التعبير به من أسرار، انظر إلى مثل قوله تعالى : **﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات .﴾** [٤] تجد أن مجئ النظم الكريم علي هذا النحو معه دلالة واضحة ومناسبة للغرض المسوق الكلام لأجله ، حيث كانت الآية الكريمة بصدد إثبات طهارة وشرف البيت النبوي الشريف وأهله ، والرد على تلك الفرية الآثمة والتي اتصلت بإحدى امهات المؤمنين ، فالمقام اذن يقتضي الإيضاح والتأكيد لمعنى الطهر والبراءة ، فكان اعادة ذكر التركيب على هذا النحو محققا لهذا المعنى على أتم وجه .

ويقول تبارك وتعالى : **﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلاتغرنكم الحياه الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور ﴾** [٥] .

---

(١) سورة البقرة الآية [١٨٧]
(٢) سورة الانعام الآية [٥٢] .
(٣) البرهان جـ ص
(٤) سورة النور : الآية [٢٦] .
(٥)سورة لقمان الآية [٣٣] .

وقد ورد التركيب في المعطوف ولا مولود هو جاز عن والده على خلاف ماكان عليه حال المعطوف عليه ولذكر التركيب على هذا النحو معنى وفائدة ، وذلك أن الغرض المسوق له الكلام الحث علي تقوى الله تعالى والعمل على مقتضيات ذلك ، والانذار بإن ثمة يوم لاينفع فيه احد احداً مهما قويت الصلات واشتدت اللحمة فلا الوالد يملك لولده شيئا. ولا المولود يملك لوالده شيئا كذلك ، ومادام الغرض تعميم النفي على هذا النحو : كان في ذكر الجملتين المتعاطفتين مع المخالفة في ترتيب لفظي الوالد والمولود فيهما اداء لهذا المعنى وفاء بهذا الغرض إذ لو قدر الكلام في غير القرآن الكريم مقتصراً على المعطوف عليه لأفاد التركيب نفي أن يملك الوالد لولده نفعاً فقط دون أن يعني ذلك حتما انتفاء أن يملك الولد لوالده ذلك ايضا ، فليس الأمر اذن مجرد اعادة الذكر لكلام سابق مع مغايرة في الترتيب والتركيب، وإنما الأمر يتدخل أصلا بأغراض ومعاني تفاد وتراد بهذا الذكر بحيث إن قدرت المذكور محذوفاً فات هذا المعنى أو نقص .

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون** ﴾(١) وقع العكس هنا بين متعلقي فعلين في جملتين ، فقد تعلق الفعل في الأولى بالحي الخارج من الميت كالإنسان يخرج من النطفة على مَايذكرون ، وتعلق في الثانية بالميت الخارج من الحي، مثل البيضة الخارجة من الدجاجة كما يقولون ، وقد تقدم الحي على الميت في المتعلق الأول ثم عكس في الثاني .

واذا كان الغرض من هذه الآية الكريمة تصوير مظهرين من مظاهر القدرة بهما تفوق جميع القدر، وكان اخراج الحي من الميت أشهر في القدرة وادل على سعة السلطان من عكسه وهو اخراج الميت من الحي : كان الأول جديراً بالتصدير، ثم يتلوه الثاني وبدون هذا ينعكس الغرض ولايتم المراد، فأسلوب العكس من البلاغة إذن لإنه مما يقتضيه المقام(٢).

* * *

---

(١) سورة الروم الآية [١٩] . (٢) الصبغ البديعي ص ٤٧٧ .

القسم الثانى

الطباق والمقابلة تطبيق وتحليل

مضت الدراسة في قسمها الأول تنظر وتتمثل ما سبق لأهل هذا الشأن أن ذكروه في هذا الباب وما حوله من حدود وتقسيمات ودروب وصور توضح ماتراه مبهماً ، وتفصل ماتراه مجملاً وتضيف ما رأت الخير بذكره دون أن تعمد إلى إسقاط أو إهمال ما سبق وذكر ، بل يذكر أويشار إليه ثم يعقب أويتعقب .

والقصد الآن هنا إلى التطبيق الخالص والتحليل المستفيض من دون قصد أيضاً إلى التغاضي عما إستقر من قواعد وأصول أوالتنكر لما صار معلوماً من البلاغة ضرورة ، فإن ذلك يعد دون ريب الأسس التي نجتهد في رفع البناء عليها والتي يحتكم إليها ويستنبط بها .

مع الطباق والمقابلة في نظم القرآن الكريم والحديث الشريف.

لاريب في أن الطباق والمقابلة يعدان من الظواهر البلاغية والبديعية البارزة في النظم الحكيم حيث تراهما منتشرين على نحو واضح في كثير من سوره وآياته ، بل ربما بنيت السورة كلها عليهما بحيث يصبحان وكأنهما المحور والأصل الذي يدور عليه إبراز الغرض والمعنى والمراد دون أن يعني هذا قطعاً إنسلاخهما عما يصاحب النظم من خصوصيات بلاغية ودلالات تركيبية وإيحاءات ورموز من وراء الألفاظ والكلمات الى جانب ما يأخذ من أحوال السياقات وقرائن الكلام ، فإن هذا كله له أثره في إدراك المعنى ، وإن شئنا الدقة يجعلنا على قرب منه ،إذ أن إدراك حقيقة المراد والوقوف على حقيقة أسرار الكتاب العزيز مما لا يتيسر، فإن ذلك من مقتضيات الإعجاز والطموح إليه درب من التعلق بالمحال ومما لا ينبغي أن يكون .

والناظر في مطابقات القرآن الكريم ومقابلاته يقف على أن أطرافهما والكلمات المعبر بها عنهما مما يجري عليه عرف الناس وبما هو معتاد لسانهم ومما هو مستمد من واقع الكون زماناً ومكاناً وجهات الى نحو هذا مما لا يخرج عن المألوف والمعتاد ، وعن متعارف الناس ومعتادهم ثم يكون باستعمال النظم الكريم على هذا النحو الخاص لهما مع استصحاب خصوصيات وكيفيات في النظم بما يؤدي الغرض منه علي وفق مقتضيات أحوال الكلام وسياقاته المختلفة .

أقول هذا وأحرص على إيضاحه وتوكيده لأني أقرأ لبعض من نحسن الظن بهم كثيراً ونقدر جهودهم أن بلاغة الطباق إنما تتحقق وتتضح وتعمق حينما يجلب لها ما لا يؤلف ،وما لا يتوقعه المخاطب ، بل كلما إجتهد المتكلم في إستجلاب ما لا عهد به في الاستعمال وإنما هو تعبير عن حقائق عند المتكلم أوردها هكذا حتى ولو كانت مواد اللغة وعرف استعمالاتها لا يسنده ، فإنه يحكم له بقدر ما يوجد من علاقات بين الأشياء تكون واقعة وواضحة في عقله أو مخيلته دون أن يعني هذا حتماً أن تكون على نفس القدر من الوضوح عند المتلقين وعليهم أن يجتهدوا في إيجاد الصلة بين الأشياء .

هذا مجمل ماأورده ما أورده الدكتور / شوقي ضيف[1] وهو من أولئك الذين نشهد لهم بثراء الفكر ، وله فضله على دراسات الأدب والتأريخ البلاغي لا ينكر ، غير أن إيراد هذا الكلام مورد التعميم هكذا ربما ألبس ، ولعلنا نظن أو نعتقد أن مقصوده إنما ينصرف إلى ما يكون في مجال الأدب والشعر ، وخاصة وأنه كان يتحدث في سياق شعر إلى تمام وخصائصه المميزة وطريقته المعروفة في تلمس ما دق من المعاني مما بدى أثره واضحا على طرق التعبير عنها أيضاً ، فأما أن يأخذ مثل هذا أو يفهم على وجه الإطلاق

---

(١) ينظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي صـ ١٩٤ وما بعدها

فلا ، فإن مطابقات القرآن الكريم غير معنية بهذا قطعاً إذ هي جارية على الجمع بين أمثال الليل والنهار والظلمات والنور والهدى والضلال والحياه والموت والدنيا والآخرة والسموات والأرض والمشرق والمغرب واليمين والشمال والنفع والضر وهكذا مما نراه منثوراً في سور الكتاب العزيز أو في آيات منه

في آيات متتابعات

في سورة الحديد نراها من أول آية الإستفتاح وحتى الآية السادسة وقد وردت فيها أمثال هذه المطابقات في تتابع بحيث لا تخلو آية واحدة من مطابقة أو أكثر .

يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ **سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منهاوما ينزل من السماء وما يعرج فيهاوهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور** ﴾[1]

فالمطابقة في الآية الأولى بين السموات والأرض ، وكذا في الآية الثانية أيضاً . بين يحيي ويميت ، وفي الثالثة بين الأول والآخر وبين الظاهر والباطن وفي الرابعة أعيد ذكر المطابقة بالسموات والأرض مرة ثالثة ، ثم كانت المطابقة بين : (يلج) و (يخرج) وبين (ينزل من السماء ويعرج فيها) ثم أعيد ذكر الطباق بالسموات والأرض في الآية الخامسة ، وأما الآية السادسة فقد

---

(١)سورة الحديد الآيات من ١ - ٦ .

جمع فيها بين لفظي الليل والنهار وإعادته على خلاف ذكره الأول على حد ما يعرف بالعكس والتبديل وهو من ملحقات هذا الباب ، والمطابقات جميعاً هنا على كثرتها وتتابعها إنما هي مبينة وشارحة ومحققة لغرض عظيم وجليل .

فإذا كانت السورة المباركة مفتتحة بفعل التسبيح المفيد تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ، ومقتضى ثبوت هذا التسبيح إتصافه تعالى بكل كمال وتفرده عماعداه ، وتفرده بما لا يكون ولا يقع إلا من الاله الحق كامتلاك الخلق والأمر والمصير ، فهو تعالى مادام قد ثبت له تنزيه سائر الموجودات في السموات والأرض معاً ، فقد ثبت له قطعاً امتلاك ماهو كائن في السموات والأرض من حيث هو المحيي لكل حي والمميت كذلك على حسب إرادته ، فقدرته تعالى تامة على كلى الأمرين جميعاً .كما أنه تعالى المنفرد بمعنى الألوهية ، السابق على سائر الموجودات ،

إذ هو مبدئها ومبدعها ، والآخر : الباقي بعد فنائها ، كما أنه سبحانه (الظاهر والباطن) : الظاهر وجوداً وأثراً لكثرة دلائله الواضحة، والباطن : حقيقة فلا تحوم حوله العقول ، ثم جاء ما يفيد بعض أحكام ملكه تعالى وإحاطةعلمه بسائر ما يقع ويكون في الأرض والسماء ﴿ **يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها** ﴾ .

ومعلوم أن من الأشياءالداخلة في الأرض والخرجة منهاما لا يكون دخوله وخروجه دفعة واحدة ، وإنما يكون ذلك الدخول والخروج شيئاً فشيئاً شأن النبات مثلاً توضع بذرته في الأرض فتمتد جذوره شيئاً فشيئاً كما تبرز سيقانه واوراقه وتنضج ثماره كذلك شيئاً فشيئاً ، ومن هنا كان التعبير بخصوص لفظ الولوج والخروج على صياغة المضارع أدل وآكد في معنى إحاطة علمه تعالي لما يفيد ذلك التعبير على هذا النحو من معنى تتابع علمه تعالى للأشياء في شتى اطوارها فهو مصاحب لها لا ينفك عنها في حال من احوال دخولها في الارض أو خروجها منها .

كما يلاحظ كذلك التعبير بحرف الظرفية : (في) دون إلي في قوله تعالى ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ لما يفيد من معنى تمكن علمه تعالي بما يصعد إلى السماء من نحو عمل أو دعاء .أو غير ذلك من احوال العباد ، فلا يند عن علمه تعالى من كل ذلك شئ ، أذ هو تعالى مطلع لا يغيب عن علمه امر،وحرف الانتهاء : (إلى) لا يفي بحق هذا المعني قطعًا .

ثم تجئ المطابقة بين السموات والارض في صورة التكرير ، وإنما هى الغرض التمهيد والبناءعلى أن مردهما وما فيهما لله تعالى فإنه تعالى هو المالك لهما وحده ، فإليه سبحانه مرد الامر كله ، ثم عقب بقوله تعالى ﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾ لينبه بالتركيب على هذا النحو من الاعاده والعكس على بعض دلائل تمام قدرته تعالى في تصريف احوال الزمان علي هذا النحو الدقيق بما يكون عليه من التداخل وعلى قدر معلوم وبحسبان خارق .

ويبقى من بعد ذلك فيما يتصل بأمر المطابقات في الآيات الكريمة ملحظان :

الأول :انفراد مفتتح هذه السورة الكريمة بعطف لفظ الارض على السماد دون اعادة ذكر لفظ (ما) ﴿ **سبح لله ما في السموات والارض** ﴾ على حين ورد ذكرها في سائر السور التي افتتحت بمثل هذاوفى صورة الحشر والجمعة والتغابن ،.

والجواب عن هذا أن يقال لما كان هذا الكلام مستوفي إلى كلمات ثلاث ، وعقدت في كل واحدة منها السموات والأرض في عقدة واحدة ، جمع المخلوق فيها تحت لفظة واحدة ، فكان معنى قوله :﴿ **سبح لله ما في السموات والأرض** ﴾ سبح لله الخلق في المكانين ، فلفظة «ما» في هذا المكان عامة وشاملة للخلق فيهمافإذا أعيدت ما في الأرض كانت الأولى خاصة للخلق في السموات دون الأرض .والكلمات الثلاث التي عقدت

السموات والأرض في كل واحدة منها عقدة واحدة قوله :﴿ **له ملك السموات والأرض**﴾ وقوله بعده ﴿ **هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام**﴾[١] وقوله بعده ﴿ **له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ [٢] فلما كان إفتتاح السورة ينتهي إلى هذه الآيات بعدها وهي تنتظم المكانين نظماً واحداً أختير أن يجعل الخلق فيهما خلقاً واحداً فلا يفصل بينهما بخلقهما ، والقصد جمعهما في نظام واحد ، ولم يكن هذا المعنى موجوداً في سائر السور ، فكان الأصل فيه أولى ، وهو إعادة ما ، والدليل على ذلك قوله في آخر سورة الحشر : ﴿ **يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيزالحكيم**﴾[٣] لأنه تعالى قال قبله : ﴿ **هو الله الخالق البارىء المصور** ﴾ فنظم تحت هذه الصفات مخلوقات السموات والأرض ، وكذلك قبله :﴿ **الملك القدوس** ﴾ كذلك نظم المخلوق في المكانين فيما يكون من تسبيحهم وتقديسهم حملاً على الأول الذي هو الأصل .

وأما الأمر الثاني فيلحظ ورود المطابقة بين فعلي الاحياء والاماته بعد قوله تعالى : ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ على حين وصل قوله تعالى : ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ الوارد بعد آيتين بقوله تعالى : ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾

والجواب عن هذا : أن المعني لله تعالي الملك التام اولاً وآخراً ، فالأول في الدنيا ، وهو وقت الإحياء والإماتة ، والآخر في الآخرة حين ترجع الأمور اليه سبحانه ، ولايملك أحدً سواه لا ملكاً ولا ملكًا، فقرن بالاول (يحيي ويميت)لأنهما إمارات الملك ، ثم قرن بالآخر ما يكون في الآخرة من مرجع الخلق وجزائهم بالثواب والعقاب إليه ، فجاء في كل موقع ما اقتضاه ، وما شاكل معناه .

---

(١) سورة الحديد الآية ٤ . (٢) سورة الحديد الآية ٥ (٣) سورة الحشر الآية ٢٤

فالننظر كيف كانت هذه المطابقات مؤدية وموفيه لتمام الغرض المسوق له هذه الايات الكريمة في كونه تعالى الاله الحق والجامع لمقتضيات الالوهية بتمامها علي وجه يحال أن ينازعه أحد ، فإذا كان من غير الممكن أن يكون لأحد سوى الله تعالي استحقاق معنى أحد طرفي هذه المطابقات على المعنى الحاصل به فيما يتصل بجانب الله تعالى، فذلك من المحال ، فأدخل منه في الاحاله قطعًا أن يجمع كائن من كان بين طرفي احدى هذه المطابقات معًا ، فكيف الحال اذن وقد وضح تحققها جميعًا وأكثر منها في حقه تعالى ، لا شك في أن هذا برهان على صدق الألوهية وتحقق مقتضياتها معه سبحانه ، فثبت له تعالى له التسبيح المفتتح به السورة الكريمة على نحو يفيد بصريح لفظه تحقق وقوعه وصدوره عن سائر الخلق جميعاً

مع المطابقات والمقابلات في صورة من القرآن الكريم

وقد يشيع استعمال المطابقات والمقابلات في بعض سور القرآن الكريم على نحو يبدو الأمر وكأن هذين الضربين الأصل الذي تبنى عليه أغراض السورة الكريمة ومعانيها .

فسورة الليل نراها وكأنها مبنية بتمامها على المطابقات والمقابلات ، فهي مبنية على قسم ومعطوف ومقسوم عليه ، ثم تقسيم وتفصيل لحال الناس من اختلاف أحوالهم من حيث الاقبال على منهج الله تعالى وما يستتبعه ، أو الأعراض والإستغناء وما يوصل إليه كل حال من هذين من مصير على وفقه ، وقد برز أسلوب المطابقة والمقابلة في أثناء التعبير عن القسم وما عطف عليه كما كانت المقابلات طريق التعبير عن تفصيل وإيضاح حال الفريقين ومآله ، ثم كانت المطابقات من بعد متسقه والغرض .

يقول الله سبحانه وتعالى : (**والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى * وما يغنى عنه ماله إذا تردى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة**

والأولى * فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذي كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا إبتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى)

ومطلع السورة الكريمة القسم بالليل والهار على جهة المقابلة

وأكثر المفسرين لم يلتفتوا إلى إحتمال أن يكون القسم بالواو هنا ، وفى نظائرها من الآيات المستهلة بالواو ، قد جاء على غير أصل إستعماله اللغوي الاول ، لمجرد غرض الاعظام لشأن ما أقسم به لملحظ بيانى ، ومن ثم شغلوا بتأول وجه العظمة في الليل والنهار ، كما هو عند الطبري[1] وابن حيان [2] وابن القيم ، وزاده الفخر الرازي تفصيلاً فقال [أعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه ويسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذي جعله الله تعالى راحة لابدانهم وغذاء لأرواحهم ، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من ظلمة وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش ، ولو كان نهاراً كله لبطلت الراحة ، لكن المصلحة فى تعقبهما] [3]

وليس على هذا النحو من بيان الحكمة ، تأتى آيات القسم بالواو بالليل والنهار التي عني المفسرون بتأويل ما في خلقهما من حكمة وما في تعاقبهما من مصلحة غير ملتفتين إلى أن هذا التأويل حين يصدق على الليل مطلق الليل والنهار مطلق النهار ، فإن الليل والنهار في سورة الليل متيدان

---

(١) تفسير الطبري جـ٣٠ ص١٣٦ (٢) البحر المحيط جـ٨ صـ٤٨٢ (٣) التفسير الكبير جـ٣١صـ١٩٨

بالغشية والتجلى ، كما يرد كل لفظى الليل والنهار مقيداً بلفظ آخر من نحو والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ، والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر ، ولابد وأن يكون مع كل قيد مغزى يناسب خصوص سياقه .

وإذا لم يتعلق البيان فى آيتى [الليل] بغير غشية الليل وتجلى النهار ، نلمح السر البيانى فيما تلفت اليه الواو من تقابل واضح محسوس ومدرك ، بين غشية الليل بظلماته ، وتجلى النهار بضيائه .[1]

وتقديم ذكر لفظ الليل على النهار هنا يتفق وما جرى عليه غالب عرف الاستعمال القرآني ، فحيثما جمع بين لفظي الليل والنهار وطابق بينهما ورد الليل أولاً كقوله تعالى ﴿ **ومن آياته الليل والنهاروالشمس والقمر**﴾[2] ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار**﴾[3]

وأم ما ورد على خلاف ذلك وقدم معه لفظ النهار أو وقت متعين منه كقوله تعالى ﴿ **والضحى والليل إذا سجى**﴾ [4] فالخصوص معنى يقتضيه غرض الكلام ، إذ الحديث هنا وارد في سياق تطمين الرسول ﷺ وإزالة ما عساه يكون قد وقع فى نفسه بعد إقطاع الوحى عنه حيناً ، فكأن فى تقديم الضحى وإيثار هذا اللفظ خاصة معه اشارة ورمز إلى هذاالغرض وذلك التطمين وزوال ما قد روج به المغرضون من رءوس الكفر والعناد ، فلفظ الضحى يشير إلى معنى الحركة والنشاط إذ هو الوقت لمثل هذا و وما دام القصدإلى بذل الوعد الكريم منه تعالى بمتابعة الوحى لنبيه ﷺ وعلى نحو اخر يكون به خيرا مما سبق كان المبادره بذكر لفظ الضحى هنا انسب لما يكون من وراءالتعبير به من معنى البشاره ولمثل هذا ايضا قدم لفظ (الآخرة) على (الأولى) من حيث كان المراد بها في هذا السياق المرة الأخرى من الوحى وهو الذي سوف يدوم ويحصل به تمام الرضا :

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم جـ٢ صـ١٠٤

(٢) سورة الروم الآية ٢٣

(٣) سورة فصلت الآية ٣٧

(٤) سورة الضحى الآية ١

وكما كان الخروج عن العرف في الاستعمال مرجحاً يكون الجريان عليه دون شك أيضاً معه معنى أدركناه وعبرنا عنه أوغاب عنا فوقفنا دونه .

ولا شك في أن الأنسب لمعنى القسم والمقسم به حمل الذكر والانثى على عموم الاحياء أي : القادر العظيم القدرة الذي خلق صنفي الذكر الانثى من كل ماله توالد وإن كان ملاحظة ظاهر السياق يرشح التخصيص بذكر بني آدم وأنثاه من حيث كان جواب القسم خطاباً لهم فهم المكلفون من الثقلين في قوله تعالى :

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾

وكما التفت ابن القيم إلى مختلف أحوال الليل والنهار ، في أقسام القرآن ، التفت كذلك إلى التقابل بين المقسم به في آيتي (الليل) واتجه به الى بيان وجه الاعظام ، قال : (تقابل بين الذكر الأنثى ، كما قابل بين الليل النهار ، كل ذلك من آيات ربيته . فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الاجرام العلوية ، كإخراج الذكر والأنثى في الاجرام السفلية) .

على أنه عاد فربط بين هذه المتقابلات على وجه آخر هو أنه سبحانه (أقسم بزمان السعي وهو الليل والنهار ، وبالساعي وهو الذكر والأنثى ، وسعيه وزمانه مختلف وذلك دليل علي إختلاف جزائه وثوابه) (١).

وهذا على قربه من السياق البياني للآيات لا يبدو متصلا بما ذكره آنفا من اجرام علوية وسفلية .

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن صـ٣٧

ونركز اهتمامنا على تدبر ما يسيطر على السورة كلها من ملحظ التقابل والتفاوت ، يبدأ باللفت الى ما هو حسي مدرك من تفاوت ما بين غشية الليل وتجلي النهار ، وخلقة الذكر والأنثى ، توطئة ايضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعي الناس ، بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وبين من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، ثم تفاوت الثواب والعقاب في الآخرة ، بين الأشقى يصلى ناراً تلظى ، والأتقى الذي يجنبها بما ابتغى وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى .

فعلى نحو ما يتفاوت الليل إذا يغشى بظلماته ، والنهار إذا تجلى بنوره ، يتفاوت سعي الناس في الدنيا بين ضلال وهدى (١)

والمقابلات واضحة ومتتابعة بين الآيتين الكريمتين قوله تعالى : **﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾** .

وهذا هو تفاوت السعي ، يأتي بعد أن مهد له اللفت الى التفاوت المدرك بالحس بين غشية الليل وتجلى النهار ، بين خلقة الذكر وخلقة الأنثى .

ونذهب مع أبي حيان إلى أن طرح مفعول أعطى المقابل بالبخل يشير إلى معنى الثناء على المعطي دون تعرض للمعطي والعطية ، وظاهره بذل المال في واجب ومندوب مكرمة (٢)

ومقابلة التقوى بالاستغناء في هذا السياق باعتبار أن المراد باستغنى أنه زهد فيما عند الله كأنه مستغني عنه فلم يتق ، أو إستغني بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة فلم يتق .

هكذا يذكر الخطيب (٣) ، وحينئذ يكون الاستغناء مقابلاً لقوله (اتقى) بما يستلزمه من عدم الاتقاء .

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم جـ٢ صـ١٠٧   (٢) البحر المحيط جـ٨ صـ٤٨٣

(٣) بغية الإيضاح جـ٤ صـ١٥

ويلحظ انفراد آية الليل باستعمال التيسير مع العسر (فسنيسره للعسرى) إذ الجاري في العرف القرآني استعمال التيسير مع اليسر ، ويترائى من وراء الاستعمال على هذا النحو مزيد مبالغة في الوعيد والانذار لأولئك الباخلين المستغرقين في الشهوات والمكذبين بوعد الله ، كما أن إقتران التيسير باليسرى معه مزيد دلاله على كريم وعد الله للباذلين المعطين المتقين ، ولم تأت اليسرى في القرآن الكريم إلا مع التيسير مسنداً إلى الله جل جلاله ، وذلك في آيتين : –

آية الأعلى : [ونيسرك لليسرى] (١) خطاباً للمصطفى ﷺ .
وآية الليل فيمن أعطى واتقى وصدق بالحسنى تأتيه البشرى بمثل ما بشر به المصطفى ﷺ من تيسير إلهي اليسرى .
أما العسرى فلم تأت بهذه الصيغة إلا في آية الليل ، وإن جاء العسر مقابلاً لليسر في آيات [البقرة ١٧٥ ، والطلاق ٧ ، ﴿ **فسيجعل الله من بعد عسر يسرا** ﴾(٢). وموقع الشرح ﴿ **إن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا** ﴾ (٣)

ثم تأتي المطابقة مع قوله تعالى : ﴿**إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ مفيدة ودالة على تمام ملكه تعالى ومشيئته لكل ما في الدنيا والآخرة يعطي منهما ما يشاء تعالى من خلقه نعيماً وثواباً ويحرم من يشاء .

لكن يلحظ في هذا السياق تقديم الآخرة على الأولى عدولاً عن المألوف في غالب الاستعمال القرآني ومع أن مراعاة الفاصلة مما له موقع في البلاغة لاينكر ، لكن لاينبغي التعلق به في كل حال بما يحول بيننا وبين

---

(١) الآية ٨
(٢) الطلاق الآية٧
(٣) شرح الآيتان ٥ ، ٦

التماس توجيه مأخوذ من خصوص السياقات والأغراض المتعلقة بها .

فالنظم الكريم هنا في سياق الانذار والبشارة ، فاقتضى هذا المعنى تقديم الآخرة على الأولى ، إذ هي المحل الواقع فيه ما ينذر به وما يبشر به كذلك ، ولهذا نلحظ تقديم الآخرة على الأولى في سورة الضحى أيضاً لانها في سياق البشارة والوعد الكريم منه تعالى للمصطفى ﷺ بأن انقطاع الوحي يتلوه تنزيله على نحو سيدوم فهو خير مما كان أول مرة حيث انقطع قدمت الآخرة على الأولى لكونها في سياق الإنذار للطاغية وذلك قوله تعالى : ﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** ﴾ (١)

ولمثل هذا السياق في الوعيد قدمت الآخرة على الأولى في هذه السورة الكريمة ، إذ هي متلوه بهذا النذير : ﴿ **فأنذرتكم ناراً تلظى** ﴾ •

ثم تأتي الآيات من بعد شارحة لحال هؤلاء المنذرين بتلك النار التي تتلظى ومن بعد هؤلاء الناجون لكونهم على أحوال أخرى مخالفة لما كان عليه أهل الشقاوة والضلال : ﴿ **لايصلاها الا الأشقى * الذي كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى** ﴾

واضح أمر التقابل هنا بين المتوعد بأشد عذاب النار وهومن غلب عليه أمر الشقاوة واستغرقته الضلاله حتى صار الأشقى وبين الموعودين بفضل الله والبعد عن ذلك المصير السيء لكونهم على حال من تمكن الإيمان في نفوسهم حتى صارت تكاليفه تنشأ منهم عن يسر وطيب نفس ، فليس الواحد منهم موصوفاً بالتقوى فقط ،

وإنما هو الأتقى ثم كان التقابل بين : ﴿ **الذي كذب وتولى** ﴾ وبين : ﴿ **الذي يؤتي ماله يتزكى** ﴾ كاشفا لما بين الحالين من خلاف وتغاير ،

---

(١) سورة النازعات الآية ٢٥

فحال تكذيب الشقي بالدين وتوليه واعراضه عن تكاليفه من وراء الإنذار بسوء المصير ،

كما كان حال العمل بتكاليف الدين مع سماحة النفس ويسر الأداء على ما يشعر به التعبير بمادة الإيتاء ، وهذا البذل إنما يكون لغرض عال ومقصد شريف ، فهو يطهر النفس والمال كما هو ينمي ويثمر لا يذهب بما ينفق منه ولا ينقصه ، وهذا مفاد الفعل يتزكى ، وهنا نلحظ إيثار صياغة فعلى التكذيب التولى فى جانب المتوعدين على المضى دليلاً على تحقق هذا الأمرفيهم وثبوتهما فى حقهم لإنهم الأشقون على حين ورد فعلى الايتاء والتزكية على طريق المضارعة تعبيراً عن تجدد وتكرر تلك المعانى منهم فهم الاتقون ، وإن كان مجيىء كل من [الأشقى] و [الأتقى] على صياغة المفرد معه اشارة إلى قصد معين من كلى الفريقين على ما يأخذ من بعض أسباب النزول وفيها أن المراد بالأتقى هنا أبو بكر الصديق . رضى الله عنه وقد كانت هذه الأحوال المذكورة فى الآيات ثابتة فى حقه فهو دون ريب جدير بمثل هذا الوعد والثناء ، غير أن خصوص السبب كما هو معلوم لا يمنع من عموم المعنى ، لكن يبقى أمثال أبو بكر الصديق رضى الله عنه من أولئك النمط العالى من أهل الإيمان وأولى الفضل وممن صاروا بأعمالهم وأحوالهم إنموذجاً وعلماً وقدوة ورمزاً : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ .

في آيات متفرقات

وبعد أن تحدثنا عن ضربي الطباق والمقابلة مع آيات متتابعة في النظم الحكيم ومع إحدى سوره المباركة فالحديث الآن عن طائفة متفرقة من الآيات الكريمة مما سلك فيها النظم القرآني هذا الطريق بضروبه وصوره المختلفة والكيفية وطريقة الصياغة والبناء بما يكون في ذلك من خصوص معنى أو إشارة أو رمز

يقول تبارك وتعالى : ﴿ **لله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير** ﴾ (١).

واضح أن الطباق بالجمع بين إناثاً والذكور وارد في سياق التفصيل والبيان لبعض آثار قدرته تعالى في إنفاذ الإشياء على وفق مشيئته وارادته تعالى، وعلى هذا فإن من وراء تقديم : [إناثاً] في الذكر إشاره دالة على مايقتضيه غرض الكلام وسياقه، فإذا كانت نفوس البشر أو أكثرهم كأنها مفطورة على حب المولود الذكر خاصة، وهم بذلك أشد تعلقاً ورغبة على حين أنهم راغبون عن الإناث كان في مجئ لفظ إناثاً مقدماً في الذكر رمز إلى أن هذا الأمر شأن سائر امور الكون كلها إنما تكون على وفق مايريد تعالى ويشاء لا على حسب مايرغب الناس ويهوون ، رضوا بذلك المقدر أم ابوا ، وبهذا يفهم وجه ايراد إناثاً منكراً ولفظ الذكور بالتعريف حتى لكأن التعريف يشير إلى أن هؤلاء الذكور هم الذين يلازمون فكرهم وخواطرهم أي أنه تعالى يهبكم الذكور المتعلقة بهم نفوسكم إن شاء ذلك لكم ، أما إن شاء تعالى أن يهبكم إناثاً فأمره نافذ حتى وإن كنتم لذلك كارهون أو كان منكم من حاله على شئ من هذا، فتنكير إناثاً إذن يشير إلى معنى واقع وحاصل مع كثير من الناس حين ينظرون إلى المولود الأنثى على شئ من الكراهة ، وربما الإحتكار أيضاً والتنكير بهذا المعنى منظور فيه إلى ماعليه حال المخاطبين وليس إلى حقيقة الأمر .

وأما تقديم لفظ [ذكراناً] على لفظ [إناثاً] في المطابقة الواردة في قوله تعالى : ﴿ **أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً** ﴾ فلأن هذا التركيب وارد علي سبيل الترقي في الهبة لمن يشاء الله تعالى لهم ذلك ، فناسب معنى تمام الإنعام ومزيد الفضل والعطية الموهوبة منه تعالى أن يجمع له كلي النوعين

---

(١) سورة الشورى : الآيتان [٤٩ ، ٥٠]

مع تقديم مابه النفوس أشد ميلاً ورغبة .

هذا مابدى لي توجيهاً وحاولت التعبير عنه .

وقد كثر كلام المفسرين حول التوجيه لما وردت عليه هذه المطابقة تقديماً وتأخيراً وتنكيراً وتعريفاً، وقد أطاب امثال الفخر في ذلك وإن كان أكثر ماوجه به لايخلو من تكلف أو بعد .

يذكر الزمخشري : [فإن قلت : لم قدم الإناث أولاً على الذكور مع تقدمهم عليهن ثم رجع فقدمهم ، ولم عرف الذكور بعد مانكر الإناث ؟ قلت : لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى، وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته ، وذكر قسمة الأولاد فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل مايشاؤه لا مايشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة مالايشاؤه الإنسان اهم، والأهم واجب التقديم ، وولى الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء وأخر الذكور، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقدم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لايخفون عليكم. ثم اعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم ولكن لمقتضى آخر فقال [ذكرانا وإناثا] كما قال ـ إنا خلقناكم من ذكر وانثى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى] (١).

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٥

ومنه قوله تعالى في الحكم على حال من استدعى من عباد الأصنام إلى اختبار يفضح زيف تلك العبادة الآثمة وسخف عقول عبادها : **﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾** (١).

فأنت ترى الطباق هنا حاصل بالجمع بين صيغتي اسم الفاعل [الطالب] وصيغة اسم المفعول [والمطلوب] ولاريب في أن تلك المطابقة على هذا النحو قد افادت تعميم امر الضعف المحكوم به ، فليس الضعف هنا مقصوراً على تلك الإلهه المزعومة لما بدى في امرها من عجز تام، فلاهي بقادرة على خلق شئ أصلاً، حتى ولو كان ذلك من احقر المخلوقات ، بل ولاهم قادرون كذلك على دفع اذى هذا الخلق عنهم فأنكشف بذلك ضعفهم، كما ينكشف ضعف اولئك العبدة ، فهم ايضاً ضعاف عقول، حيث عجزوا عن أن يدركوا بها فساد ماهم عليه وصواب مايدعون إليه من الدين الحق، وهم ايضا ضعاف قدرة حيث إنهم عاجزون عن أن ينالوا شيئاً مما يسلبهم الذباب على مايحتملوا معنى التركيب : **﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا ﴾** من عود الضمير إلى العبدة لا إلى مايعبدون على ماهو الحمل الآخر، كما أنه يمكن فهم معنى الطالب بما يعود على الأصنام المتخذه آلهه وضعفها عجزها عن امر الخلق ورد ماسلب، ، [والمطلوب] : الذباب، وقد سلب منهم مايعجزون عن نيله منه مع كونه ضعيفاً حقيراً .

---

(١) سورة الحج : الآية : [٧٣] .

ومن بليغ ذلك الباب ماورد في سياق الامتنان على المصطفى ﷺ ببعض وجوه الإنعام والفضل التي خص بها من قبل تعالى : ﴿ **ووضعنا عنك وزرك . الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك** ﴾ (١) والمقابلة هنا بين وضع الوزر المفيد معنى الطرح والحط والإلقاء ، وبين رفع الذكر المفيد معنى السمو والرفعة : تدل على مدى الفضل والتفضيل بإخصاصه ﷺ بهذا الإكرام ،فإذا كان طرح الوزر وحده كافياً في باب الإمتنان، كما أن مؤدى رفع الذكر يعد ايضاً على جهة الإنفراد كافياً في هذا الباب، فلا شك في أن اجتماع الأمرين معاً في حقه ﷺ ادخل في باب الفضل وإتمام النعمة ، اذ ليس الأمر مقصوراً حينئذ على مجرد طرح ماعساه يؤاخذ به ، وإنما يتجاوز الأمر هذا الحد إلى مدى ارحب بإثبات مايفيد معنى التكريم والتشريف برفع الذكر، فوضع الوزر درجة ومرتبة، ثم إن رفع الذكر مرتبة ودرجة اخرى وبأجتماعهما تتم النعمة ويكتمل الإكرام والإمتنان .

ويبقى المراد من الوزر الموضوع عنه ﷺ وكذا ذكره المرفوع مجال رأي وخلاف بين أئمة العلم والتفسير .

والذي تطمئن إليه النفس اكثر أن الكلام مع الوزر الموضوع على سبيل التمثيل، فإن ماكان يحمله عليه السلام من ثقل الإهتمام بشأن قومه، وضيق المذاهب بين يديه قبل تواتر الوحي عليه بالإرشاد، لم يكن ثقلا حسياً ينقض منه الظهر ولكنه كان هماً نفسياً يفوق ألم ذلك الثقل الحسي الممثل به ، فعبر عن الهم الذي تبخع له النفوس بالحمل الذي تقصم له الظهور (٢) .

فالوزر هنا : الضلال الذي في ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾(٣) : ضلال الحيرة وعدم الإهتداء إلى سواء السبيل، حتى هداه الله ووضع عنه ذلك الوزر الذي بلغ من فداحة ثقله أن انقض ظهره، لفرط ماكان يشعر به قبل

---

(١) سورة الشرح آيات [٢، ٣، ٤]. (٢) تفسير جزء عم للشيخ : محمد عبده ص ١١٤.
(٣) سورة الضحى : آية [٧] ..

المبعث من وطأة الحيرة ، وضلال السبيل إلى الحق الذي تطمئن به نفسه .

ثم إنا نلحظ في جانب رفع الذكر اضافة هذا الذكر المرفوع إلي ضمير خطابه ﷺ ، وهذا الإستعمال يضفي على كلمة الذكر جلالاً ورفعة ، لكثرة ماتقترن بذات الجلالة ، أو تضاف إلي ضميره جل شأنه ، أو يقصد بها القرآن والوحي ، فإذا قال الله لعبده ورسوله : ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ بلغ بهذا اقصى المدى من الإيناس والرفعة لما يحف بلفظ الذكر من جلال وعلو قدر .

ومابنا حاجة بعد ذلك ، إلى أن نحدد هذا الرفع للذكر بكذا وكيت مما عده اصحاب التأويل ، فحسب محمد ﷺ أن اصطفاه رسولا ، ليكون له من هذا الإصطفاء مايجاوز كل مطمح لبشر يتيم عائل[1] .

ولهذه البشرية - التي نعلم حرص القرآن على تقريرها ، وحرص المصطفى على الإعتراف بها .

وفي مجئ [**عنك**] مع الوزر الموضوع، ولفظ [**لك**] مع الذكر المرفوع مايلائم معنى التخصيص في تلك الأمور المخاطب بها ﷺ في هذا السياق الكريم ، فوضع الوزر عنك انت، كما أنا رفع الذكر لاجلك انت ، هذا فضلا عما يفاد ومن مزيد معنى الامتنان والتكريم .

وتقديم تركيب وضع الوزر على تركيب رفع الذكر جري على غالب عرف الأستعمال فإن رفع مابه ضرر مقدم على جلب مافيه نفع اذ النفس تتعلق أولاً بتوقي مايجلب لها ضررا ثم من بعد تتوق وتتعلق بما يحقق لها نفعاً ومصلحة ، فرفع الوزر تخليه ، واما رفع الذكر فتحلية والتخلية مقدمة على التحلية على حد تعبير بعض اهل العلم .

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم جـ ١ ص ٦٩ . .

وأما صياغة فعلى الوضع والرفع على المضى مع أن هذا يخالف في الظاهر سياق الآية الكريمة قبلا: ﴿ الم نشرح لك صدرك ﴾ فلأن المراد تحقق تلك الأمور الممتن بها جميعاً ،فشرح الصدر له ﷺ حصل وكان ،كما أن وضع الوزر ورفع الذكر وقع وحدث ايضا، فالحديث اذن إخبار عما وقع وحدث ، والمتكلم بذلك هو الله تعالى الفعال لما يريد والممتن بما تفضل به ، واما صياغة فعل الشرح على طريق المضارع ومصاحبة الاستفهام المعقب بالنفي فمن وراء ابراز المعنى على ذلك النحو مزيه وغرض، فمعه استثارة للفكر أن يمضي في الأمر ماشاء وأن يقلبه ويديره كما يريد، فلايسعه نهاية الأمر سوى الإقرار والتسليم بما يخبر به المتكلم ويريده وإن أبرزه في معرض آخر غير الإخبار، وتلك طريقة في الأداء والتعبير تدل على توكيدالكلام المراد إثباته ووثوق المتكلم، وبعد أن تحقق بالآية الكريمة الأولى الغرض من وراء المعرض الذي برزت عليه ، يكان مآل المعنى شرحنا لك صدرك فكانت الآيات من بعد واردة بما هو صريح في افادة معنى التحقق بناءاً على الاصل المفاد بالإخبار بصياغة المعنى .

ثم يأتي قوله تعالى :﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾ (١) واول ما يلفتنا هنا تكرار المطابقة بين العسر ويسرا، لكن ينبغي ألا نغفل عن موقع حرف العطف [الفاء] المصدر بها الآية الأولي لأن فقه موقعها يهدي إلى فهم الطباق ومغزاه وتعلق المعني وسياق .

تلفتنا الفاء هنا لما فيها من معنى الترتيب ، فهي تقرر مايترتب على ماسبق بيانه من شرح للصدر ووضع للوزر ورفع للذكر، وهذ التقرير يأتي مؤكدا بإن ، ثم يقوى التاكيد فيه بتكرار الجملة مرتين نفياً للشك وإبعاداً للإرتياب .

والذي نطمئن إليه هو أن الجملة الثانية تاكيد للأولى ، لتقوية اليقين

---

(١) سورة الشرح : آية [٥، ٦] .

النفسي وترسيخ مامن الله به على عبده ﷺ من شرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره، والأمثل عندنا أن تكون [ال] في العسر، للعهد لا للإستغراق، ويقصد بها ماكان الرسول يشعر به من ضيق الصدر وثقل العبء وفداحة الأمر، أما تنكير اليسر فلكي ينفسح فيه مجال التصور، ويمضي به إلي أبعد مدى، فيحتمل ماقاله المفسرون ومالم يقولوه، إذ التحديد هنا بكذا أو كيت من مفهوم اليسر، ينافي البيان القرآني الذي آثر إطلاق :[يسرا] هكذا بغير حدود .

وقد سبق للزمخشري رحمه الله أن نبه على أن استعمال لفظ [مع] العسر ويسرا في الآيتين الكريمتين دون [بعد] أو ماشبه مما يفيد التفاوت الزمني .

يقول جار الله : [إن « مع » للصحبة ، ومعنى اصطحاب اليسر والعسر أن الله اراد أن يصيبهم – يعنى المؤمنين – بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسرالمترقب حتى جعله كالمقارن للعسر، زيادة في التسلية وتقوية القلوب] (١) .

وهذا ملحظ دون ريب دقيق ويعبر عن صواب ولا أكاد أرى وجهاً لما استدرك به على عبارة الكشاف[حين قال : يصيبهم بيسر ، واستعمال الإصابة في مقام البشرى غير مقبول، دون ضرورة بيانية تقتضيه، فضلا عن اننا نؤثر أن تكون الآية تقوية للرسول بخاصه، لا للمؤمنين بوجه عام، إذ السياق قبلها وبعدها يجعل هذا التخصيص أولى بالمقام](٢)، وذلك أن الإصابه كما تستعمل في معاني الضرر والشر تستعمل ايضاً في معاني الخير والنفع وقد جرى عرف البيان القرآني على ذلك كقوله تعالى : ﴿ **إن تصبك حسنة تسوهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا** ﴾(٣) وكقوله سبحانه : ﴿ **ماأصاب من حسنة فمن الله** ﴾ (٤) .

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ٢٦٧ . (٢) التفسير البياني للقرآن الكريم جـ ١ ص ٧٢ .
(٣ سورة التوبة الآية [٥٠] . (٤ سورة النساء الآية [٧٩] .

ثم وإن كنا مع خصوص المعنى بحكم السياق والمساق إلا أن هذا لايمنع أن مؤدى معنى الطباق في هاتين الآيتين من اقتران اليسر للعسر ومصاحبته له ، ومايكون من وراء ذلك دوام التعلق بلطف الله تعالى وفضله مما يعم .

وقد يخالف بين طرفي المطابقة في طريقة التعبير كقوله تعالى في سياق الإنذار من الوقوع في الضلال والتحذير من اتباع الشيطان والتحريض على توخي الإهتداء الذي هو من الله تعالى : ﴿ **قل أمر ربي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون**﴾ (١)

وتقديم فريق الهدى معه اشارة على فضل هذا الفريق وسبقة وأن على امثال هؤلاء الضالين ترك ولاية شياطينهم والاستجابة لدواعي الإيمان والهدى .

وفضل صياغة التركيب [حق عليهم الضلالة] دون [ضل] أو [اضل] في مقابل [هدى] أنه آكد في ثبوت معنى الضلالة في حقهم ، اذ معنى [حق عليهم الضلالة] ولزمومها، ولم يقلعوا عنها، وذلك أن المخاطبين كانوا مشركين كلهم، فلما أمروا بأن يعبدوا الله مخلصين افترقوا فريقين : فريقا هداه الله إلى التوحيد ، وفريقا لازم الشرك والضلالة، فلم يطرأ عليهم حال جديد، وبذلك يظهر حسن موقع لفظ : [حق] هنا دون أن يقال أضله الله ، لأن ضلالهم قديم مستمر اكتسبوه لأنفسهم ، كما قال تعالى في نظيره : [**فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة**] ثم قال : [إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدي من يضل](٢) فليس تغيير الأسلوب بين : [فريقا هدى] وبين [وفريقا حق عليهم الضلالة] تحاشيا

---

(١) سورة الأعراف : آية [٢٩ ، ٣٠] . (٢) سورة النحل : آية [٣٧]

عن إسناد الإضلال إلى الله كما يذكره صاحب الكشاف [١] فإنه قد اسند فعل الإضلال إلى الله تعالي صريحاً في اكثر من موضع في النظم الكريم وإنما إختلاف الأسلوب لإختلاف الأحوال ومقتضياتها .

ومما يجري على هذا الطريق من المغايرة بين طرفي المطابقة ايضاً قوله سبحانه وتعالى في سياق خطاب سليمان عليه السلام الهدهد واختبار امر ماأخبر به عن حال سبأ : ﴿ **قال ننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين** ﴾[٢]

فمقتضى الظاهر : أصدقت ام كذبت وإيثار ماعليه النظم الكريم يفيد أن كذبه في هذا الشأن يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه ، [فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة على ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق اصلا لاسيما بين يدي نبي عظيم الشأن لايكاد يصدر إلا عمن له قدم راسخ في الكذب والإفك][٣] .

ومن ذلك قوله تعالى في بشارة اهل الإيمان والتقوى ممن اخلصوا دينهم لله تعالى فصرفوا نفوسهم واموالهم لنشر الدعوة، وصد من يصدون عن السبيل ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرءان ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بأيعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [٤] .

واذا كانت المقاتلة في سبيل الله لها فضلها وثوابها، فقد جاءت المطابقة

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص٧٦

(٢) سورة النمل : آية [٢٧] .

(٣) تفسير ابي السعود جـ ٦ ص ٢٨٢ .

(٤) سورة التوبة : آية [١١١] .

قوله تعالى : ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ مفصلة وموضحة بما ينبئ عن تمام الفضل واعظم الثواب فقد احرز المقاتل جهاداً في سبيل الله فضلاً على فضل، حيث جمع إلى بذل النفس جهاداً وتبؤ مكانة الشهداء : تحقيق اصل الغرض من الجهاد ومقاتلة المارقين ، وذلك بقتلهم والإنتصار عليهم ، وبهذا تتضح بلاغة المطابقة الحاصلة بالجمع بين فعلي القتل مع بناء الأول للمعلوم والثاني لغيره فإذا كان في قتل اهل الكفر معاني الجسارة والغلبة ودرء اذاهم عن الإسلام واهله ، وهذا وحده يقوم غرضاً في الجهاد وله فضله وثوابه فإن في مقتل اهل الإيمان معاني الدفاع والإستبسال وخلوص النية والفداء، فكان له بذلك درجة الشهداء، وهذه فضيلة اخرى، فصار لمن هذا حاله فضل الجمع بين الفضيلتين معاً، وبهذا يفهم ماصدر به هذا النظم الكريم وكيف أنه تعالى كان منه الشراء من اهل الإيمان الحق وإن لم يكن على ماجرى به العرف والعادة، وإنما هو من قبيل خاص لايكون ولا هو ميسور لكل احد، اذ لايكون ولايتيسر إلا لمن خالط خالص الإيمان قلوبهم فاستحبوا الموت جهاداً أو نصرة للدين على الحياه، كما أن اموالهم لم تعد تمثل شيئاً يحرثون عليه، لقد باعوا نفوسهم واموالهم لكن لم يكن منهم ذلك البيع في مكان قد تبور فيه التجارة فهي فيه في معرض الربح والخسارة ، بل هي في ساحة الجهاد وصاحبها رابح في كل حال، كما أنها ليس مع من قد يبخس امرها او يهضم صاحبها حقه، بل هذه مع من لايضيع عنده مثقال ذرة،فأنعم بهذا من شراء وبيع واعظم بذلك من مشتر سبحانه وتعالى.

كما أن ورود طرفي المطابقة على طريق المضارعة دال على أن هذا عادة من اخلصوا الإيمان والجهاد، وأن ذلك منهم يحصل ويتجدد كلما اقتضى الأمر منهم ذلك ، والحديث ليس بخصوص معين ولا فئه بعينها حتى يقال كيف يتصور تحقق امر تلك المقاتلة على هذا النحو وتكرر ذلك وتجدده اذ القصد أن ذلك عرف مخلصي الإيمان يتناوبون عليه فكلما قضى واحد

منهم أو جماعة نحبه خرج من بينهم من يقوم بهذا الأمر، وايضاً فإن في تقديم الفعل [فيقتلون] بالبناء للمعلوم مايفيد سبق معنى الغلبة والنصر ، فإن هؤلاء ماقتلوا استشهاداً ألا بعد أن نالوا من عدوهم واذاقوه القتل قبل أن ينالهم فضل الشهادة .

ومــن الطباق ماقد يشتبه امر معناه ويلتبس في بادئ الأمر فيحتاج إلى نظر وتأويل يزيل الاشتباه ويذهب باللبس ويكشف عما عساه يكون مراداً .

ومن ذلك ماورد في سياق الإبانه عن احاطة علمه سبحانه وتعالى بحال خلق الإنسان بدءاً ونهاية ، بعد ماكشف عن كمال قدرته سبحانه في اطوار تخليق البشر : ﴿ .. **وماتحمل من انثى ولاتضع إلا بعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ (١) ،

واضح ان الغرض من المطابقة في قوله تعالي: ﴿ **ومايعمر من معمر ولا ينقص** ﴾ إثبات شمول لعلمه لكلي الحالين، حال من طال عمره فعمر، وحال من قصر في عمره فمات صغيراً، فالظاهر اذن جريان الأمرين على غير واحد اذ هما حالان مختلفان، غير أن ظاهر النسق ربما البس ومن هنا ذهب أئمة اهل التفسير إلي أن الكلام جار على ضرب من التسامح معهود ومشتهر في عرف المخاطبين .

يقول صاحب الكشاف : [فإن قلت مامعنى قوله : ومايعمر من معمر – قلت: معناه ومايعمر من احد وإنما سماه معمرا بماهو سائر إليه ، فإن قلت : الإنسان إما معمر أي طويل العمر، أو منقوص العمر أي قصيره ، فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال ، فكيف صح قوله : [ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره] ؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة

---

(١) سورة فاطر : آية [١١] .

في تأويله بإفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لايلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد، وعليه كلام الناس المستفيض يقولون : لايثيب الله عبدا ولايعاقبه إلا بحق ، وماتنعمت بلدا ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي] (١).

كما ذكروا حملاً آخر يعود به الحالان على واحد، على معنى: أنه لايطول عمر إنسان ولايقصر إلا في كتاب وصورة ذلك كما يذكرها صاحب الكشاف [أن يكتب في اللوح إن حج أو غزا فعمره اربعون سنة ، وإن حج وغزا فعمره ستون سنه ، فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر، وإذا افرد احدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون، وإليه اشار رسول الله ﷺ في قوله [**إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار**] وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه : لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله ، فقيل لكعب: أليس قد قال الله ﴿ **إذا جاء أجلهم فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون** ﴾ قال : فقد قال الله – ومايعمر من معمر– وقد استفاض عى الألسنة ، اطال الله بقاءك وفسح في مدتك وما اشبهه] (٢) .

ومن ذلك ايضا قوله تعالى : ﴿ **ولكل امة اجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون** ﴾(٣) فإن ظاهر الجمع بين [يستأخرون] و [يستقدمون] يوهم التعارض، كما أن في طلب استقدام الأجل إحاله.

والمعنى على مايأخذ من كلام اهل العلم والتفسير : أي : لايتأخرون ، ومجئ الفعل مصاحباً بما يدل على الطلب للدلالة على مدى عجزهم وحرمانهم مع مزيد حرصهم على ذلك والمبالغة في طلبه .

---

(١) الكشاف : جـ٣ ص ٣٠٣ .
(٢) ينظر المرجع السابق نفس الصفحة .
(٣) سورة الأعراف الآية [٣٤] .

وأما عطف : [ولايستأخرون]فليس لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه في نفسه كما هو حال التأخر، بل الغرض هنا المبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا كما في قوله سبحانه وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فإن من مات كافراً مع ظهور أن لاتوبة له رأساً قد نظم في عدم القبول في سلك من سوفها إلى حضور الموت رمزاً لتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها .

وعلى هذا فقد افادت المطابقة هنا بمجيئها على هذا النحو تساوي كل من طلب التأخير وطلب التقدم في الإنتفاء وعدم الإمكان .

وتقديم بيان إنتفاء الإستئخار لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب وأما ما في قوله تعالى ماتسبق من امة اجلها ومايستأخرون من سبق السبق في الذكر فلأن المراد هناك بيان سر تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ **ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ فالأهم هناك بيان انتفاء السبق [١].

ونظير هذا الطباق موقع يونس قوله تعالى : ﴿ **اذا جاء اجلهم فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون** ﴾ [٢] وكذا موقع النحل قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون** ﴾ [٣] .

ويلحظ انفراد آية يونس بعدم مصاحبة حرف الظرف [اذا] للفاء ويذكر الكرماني تعليلا لهذا : لأن التقدير فيها : لكل أمة اجل فلايستأخرون ساعة إذا جاء اجلهم ، فكان هذا فيمن قتل ببدر ، والمعنى : لم يستأخروا[٤]

(١) تفسير ابي السعود جـ ٣ ص ٢٢٥ .
(٢) سورة يونس : اية [٤٩] .
(٣) سورة النحل : آية [٦١] .
(٤) اسرار التكرار في القرآن ص ١٠٣ .

ومن ذلك قوله تعالى فى شأن اثبات كمال قدرته ومشيئته : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾[١] أي : ينسخ مايشاء نسخه من الأحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت [ويثبت] بدله مابه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ ، أو يثبت ماشاء إثباته مطلقاً أعم منهما ومن الإنشاء ابتداء .

وهذا التفسير انسب بتمام الغرض لكونه يشمل ماقيل من أن المراد محو الله تعالى لسيئات التائب وإثبات الحسنات بدلاً منها ونحو ذلك مما يخصص المراد بمعين ، اذ الأنسب في مثل هذه المقامات الحمل على مايفيد التعميم من حيث كونه اشد ملاءمه لتمام الغرض ، وهو إثبات خالص القدرة والإراده دون معقب وفي كل مايشاء، ثم إن في صريح النظم مايفيد امر التعميم حيث علق فعلا المحو والإثبات بمشيئته تعالى وإن ذكر صريحاً مع فعل المحو وطوي ذكره من اللفظ مع فعل الإثبات لفهمه بدلالة ذكره أولا وبمعونة السياق والغرض.

ثم إن التعبير في طرفي هذه المطابقة بصيغة المضارع: يفيد أن ذلك المحو والإثبات لما شاء تعالى وعلى وفق حكمته امر دائم ومتجدد ومتكرر، فهو شأن من شئون الألوهية فلا يعجزه عن تحقيق مراده شئ، فقد قامت المطابقة إذن بهذين اللفظين وعلى خصوص هذه الصيغة بالتعبير عن تمام المعنى والمراد، كما أن في التعقيب بقوله تعالى : [وعنده ام الكتاب] مايؤكد تمام قدرته تعالى على ذلك الأمر فإن اصل الكتاب المسجل فيه امور الخلائق كلها لديه تعالى وحده فهو المنفرد بذلك على مايفيده تقديم الظرف مضافاً إلى الضمير العائد إليه تعالى .

---

(١) سورة الرعد : آية [٣٩] .

الطباق المحذوف احد طرفيه :

وقد يفاد المعنى الحاصل للطباق وقد حذف من التركيب احد الطرفين وفي الطرف الآخر المذكور أو في سياق الكلام وغرض واحوال بناء جمله مايدل عليه .

فالبيع والشراء منهي عنهما جميعاً عند النداء لصلاة الجمعة وليس البيع المخصوص بالحظر وإن كان صريح الآية الكريمة على ذلك الظاهر وذلك قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذرو البيع** ﴾ (١).

فالنهي على مايذكر اهل العلم يسري على الشراء وإن لم يكن له ذكر في الكلام مثلما هو سار على البيع المذكور، كما أن السرابيل التي امتن الله تعالى بها على الخلق تقي من البرد وإن لم يكن له ذكر في التعبير كما هي تقي من الحر المصرح بذكره وذلك قوله تعالى : ﴿ **وسرابيل تقيكم الحر**﴾(٢) فالوقاية بالثياب تكون من الأمرين وفي الحالين وفي كل من الوقايتين نعمة ، وفي القرآن الكريم من هذا الطريق كثير مما كان السياق والمقام معه يقتضيان ذكر امرين على جهة التقابل لكن اوثر طي احد المتقابلين على حين اختص طرف الآخر بالذكر لحكمة ومغزى رجحت افراده واختصاصه دون غيره بالذكر والإكتفاء به عما حذف على النحو الذي حاولت تناول اطرافه في مبحث الإكتفاء ولهذا لاأرى داعيا لأن افيض فيما يتصل بهذا الموضوع هنا، وإنما اقتصر على مالم يذكر هناك لخروجه عن موضوعه .

يقول الله في بيان وتفصيل كيف أن اجناس الكون جميعاً تصدر عنها وتكون منها أمارات الخضوع لله تعالى وتنزيه وتسبيحه والسجود له : ﴿ **ألم**

---

(١) سورة الجمعة : آية [٩] .   (٢) سرة النحل : آية [٨١]

تر أن الله يسجد له من في السموات ومن فيالأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء ﴾ (١) .

فجملة : [وكثير من الناس] يراد بها : الدلالة على حصول امر السجود من هذا الفريق وإن لم يذكر السجود بلفظه معهم، لكن يفهم من سياقه مع ماقبله، وكذا بمقابلته لما بعده [وكثير حق عليه العذاب] إذ يفهم من هذا أن الفريق الأول لم يحكم عليه بالعذاب ، بل هو فريق ناج ، وهذا يعني وقوع السجود الذي هو رمز للطاعة والإنقياد لدين الله تعالى الحق، فانظر كيف كان حذف لفظ [ناجون] او نحوها لانفهامه مما في التركيب بعده وللدلالة عليه بموقع التريب قبله ايضا .

ومما يجري على هذا الضرب من المقابلات في القرآن الكريم على حمل وتوجية قوله تعالى : **﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار، يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به مافي بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾**(٢) .

فقوله تعالى : **﴿ يدخل الذين آمنوا .. إلى آخره ﴾** مقابل قوله :

---

(١) سورة الحج : آية [١٨] .
(٢) سورة الحج : آيات [١٩ إلى ٢٤] .

[كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها. وقوله : [يحلون فيها من أساور من ذهب] : يقابل قوله [يصب من فوق رءو سهم الحميم] وقوله : [ولباسهم فيها حرير] : مقابل قوله : [قطعت لهم ثياب من نار] وقوله : [وهدوا إلى الطيب من القول] : مقابل قوله [وذوقوا عذاب الحريق] ، فإنه القول النكد .

ويحتمل أن يكون : الطيب من القول هو قول اهل الجنة اعترافا بفضل الله تعالى عليهم وحمدا له ، بإرشاده تعالى لهم أو إلهامهم تلك الأقوال ، يقولونها بينهم نظير مافي قوله تعالى : ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾ (١).

وعلى ذلك فجملة قوله تعالى : ﴿ **وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ كالتكملة لوصف حسن حالهم لمناسبة ذكر الهداية في الجملة السابقة ، ولم يسبق مقابل لمضمون هذه الجملة بالنسبة لإحوال الكافرين ، وذلك من بديع بلاغة المقابلة .

* * *

---

(١) سورة ينس : الآية [١٠]

في متشابه النظم القرآني

هناك مطابقات كثر دورانها في الكتاب العزيز وعلى انحاء مختلفه تقديماً وتأخيراً افراداً وتثنية وجمعاً إلى نحو هذا مما يدخل فيما يعرف بمتشابه القرآن الكريم وهو باب جليل وتحته اسرار ودقائق .

ويدخل في هذا امثال المطابقات بين الحسنه والسيئة والنفع والضر، والخوف والطمع والخوف والأمن، ولكن لما كان امثال هذه المطابقات قد عرضت لها في بحث الجمع بين النفع والضر لدخولها في موضوعه أقتصر هنا على ايراد مالم يذكر هناك لخروجه عن موضوعه ومنه الطباق بين السر والعلن والمشرق والمغرب واليمين والشمال والسماء والأرض .

بين السر والعلن

فقوله تعالى : ﴿ **وإن ربك لايعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون** ﴾[1] بتقديم فعل الكن لمناسبة الغرض، حيث وردت هذه الآية الكريمة في سياق تسلية الرسول ﷺ وتطمينه ، وأن مايقصد إليه المشركون من قومه ويبيتون له ويضمرونه في نفوسهم من العداوة ومظاهر الأذى والكيد ويجتهدون في ستره واخفائه حتى لايفتضح امرهم إنما هو مدرك بمقتضي احاطة علمه تعالى ومحصي عليهم في كتاب كاشف عما بالغوا في ستره واخفائه على مايشير إليه صريح قوله تعالى تقريراً لهذا المعنى وتاكيداً لـه وتدليلاً عليه : ﴿ **ومامن غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين** ﴾ [2] حيث اكتفى بذكر الغيب دون الشهادة لمناسبة ذلك الغرض المسوق له الكلام اصلاً مع انه معلوم قطعاً احاطة علمه تعالى بما غاب وماشوهد ، ومن سمي كان ذكر: [ومايعلنون] على سبيل افادة تمام الإحاطة لعلمة لسائر احوالهم ،

---

(١) سورة النمل : آية [٧٤] .   (٢) سورة النمل آية [٧٥] .

سواء ماوقع منهم من مكر وتبييت ، وهوالذي عليه مساق الحديث هنا اصلاً، وماقد يجاهدون به في كل وقت وحال، فإن علمه تعالى متناول لهذا وذاك، وهذا يفسر التعبير بطريق المضارعة مع الفعلين ، كما يفهم ايضا وجه التعبير بلفظ: [تكتون] لما فيه من دلالة على معنى الجهد في محاولة الستر والإخفاء .

وهذا الذي ذكرت حول تقديم فعل الكن اراه الأنسب لحال الكلام في هذا السياق خلافاً لما يذكره الفخر من أن مرده إلى معنى الأسبقية أو السببية فإن الشئ يضمر في النفس أولاً ثم يكون الإعلان عنه والجهر به (١) اذ التوجيه على مثل هذا يقتضي اطراد الاستعمال علي هذا النحو في سائر مواقع النظم القرآني ، مع أن الأستعمال القرآني جرى على خلافه في بعض المواقع نظير قوله تعالى : ﴿ **أنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون** ﴾ (٢) فتقديم الجهر هنا لكونه الألصق والأنسب بسياق الكلام. حيث كان الجاحدون من مشركي مكه يمارون في شأن ماتوعدوا به ويكابرون ويصدر عنهم مايدل على هذا المراء والكبر ويجهرون به في عجب وغرور فناسب حالهم تلك تقديم الجهر ليفيد من اول الأمر احاطة علمه تعالي بما هم عليه في تلك الحال ، ولكن لما كان علمه تعالى محيطاً بما قد يضمرونه عطف عليه فعل الكتمان، ولعل هذا يفسر ورود الجهر علي صيغة المصدر مع ورود الكتمان على صيغة الفعل والمضارعة، فإن في صياغة الاسم كما هو معلوم افادة معني الدوام والثبوت فناسب ذلك حال هؤلاء المخاطبين حيث وقع منهم الجهر وثبت في شأنهم كما هو ثابت في علمه تعالي على سبيل الدوام ، سواء ماصدر عن هؤلاء، أو عن غيرهم ، فكأن المقصودأصالة بحكم سياق ماذكر اولاً ، وهو علمه تعالى بالجهر، وإنما ذكر من بعد ذلك علمه بما يكتمون لإفادة معنى هو ثابت في حقه تعالى بحكم الوهيته وشمول علمه .

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢٤ ص ٢١٥

(٢) سورة الأنبياء : اية [١١٠]

فاتضح بذلك أن الأمر في تقديم ماقدم وتأخير ماأخر إنما هو بحسب السياق وحال الكلام والغرض، وليس مرد ذلك إلي أمر السبق والعلة .

نعم ان غالب ماجرى عليه عرف الاستعمال القرآني : تقديم مايفيد معنى الخفاء والستر على مايفيد معنى الجهر والعلن ، وقد نجد لبعض ذلك الأستعمال حكمةً عامه مثلما نجد في تقدم مادة الغيب على الشهادة فيما يتصل بخصوص علمه تعالى وإحاطته ، فمن الميسور رد ذلك إلي أن هذا التقديم ادل وامكن في إثبات معنى شمول علمه تعالى لكن يبقى مرد الأمر في سائر المواقع إلى خصوص احوال الكلام ومقتضياته .

انظر إلى قوله تعالى خطاباً للملائكة عليهم السلام : ﴿ **الم اقل لكم أني اعلم غيب السموات والأرض واعلم ماتبدون وماتكتمون** ﴾ (١) وماتراه من تقديم ماتبدون على : [ماتكتمون] ومناسبة ذلك لخصوص الحال حيث ورد هذا رداً على الملائكة حين بدى منهم التعجب، إذ أخبرهم الله باستخلاف آدم في الأرض فإنهم ماكان ينبغي لهم ماصدر عنهم فإنـــه لايعدوا إلا أن يكون بناء على امور ظاهرة دون ادراك ماوراءها من حكم ومقاصد، فليس ذلك او شئ منه في طوقهم ، فإنه من مقتضيات علمه تعالى الذي يعلم مالا تعلمه الملائكة ، فعلمه سبحانه محيط بما غاب في السموات وماخفي ويخفي على مثل الملائكة امره وماغاب في الأرض من مثل مايقع من بني آدم مما غاب عن الملائكة عليهم السلام وجه الحكمة معه
ثم كان قوله تعالى ختاماً لتلك المحاورة وماورد فيها من بيان وبرهان وتدليل على علمه تعالى بما لايعلمونه : ﴿ **ويعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون** ﴾ لقصد افادة معنى ذلك على ماسبق اعلامهم به ، حيث افيد بهذه المطابقة صريحاً عموم علمه تعالى لكل ماكان منهم وماقد يكون ، سواء مابدِا منهم وآتوا به صريحاً حين قالوا على مايذكر القرآن الكريم :

---

(١) سورة البقرة : آية [٣٣] .

﴿ اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (١) وماقد يبدوا منهم من بعد ذلك او مالايصرحون به اصلاً، بل يستبطنونه ، ومن هنا كان التعبير على طريق المضارعة معبراً عن احاطة علمه تعالى بما بدى منهم في الحال، وبما قد يتجدد، او بما يضمرونه في نفوسهم في اي زمن ، فعلمه تعالى بهذا كله محيط .

وينقل صاحب التحرير عن بعض المفسرين أن مجئ : [كنتم] مع تكتمون هنا للدلالة على ماسبق معنى الكتمان أي : ماكنتم تكتمونه من قبل أن يبدوا منكم الإفصاح عنه .(٢) .

ولاأرى في هذا مزية تبرر القول به ، بل امر التكلف فيه واضح.

واما تقديم السر على العلن في مثل قوله تعالى : **﴿ الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾** (٣) فإن من المعلوم أن الإنفاق في وجوه الخير مطلوب شرعي في كل وقت وحال متى كان ذلك ميسوراً ، وكثيراً مايحض اهل الإيمان عليه ، وكثيراً ماأثنى على أهل التقوى لإتصافهم به وبشارتهم لذلك بجزيل العطاء والثواب ليلاً ونهاراً وسراً وعلناً، فإن مع كل حال ووقت مسوغ له وحكمة منه ، فللإنفاق سراً مزية الإخلاص والبعد عن الرياء، ومراعاة امر المتصدق عليه بعدم ايذاءه بإطلاع غيره فى حاله التي ربما يرى فيها شيئاً من المس به ، كما أن الإنفاق علناً فيه مزية نشر لفضيلة وفيه حفز لغير المنفق وحث له على البذل حتى لربما صار إليه بخيل محاكاه او مداراة لحقيقة امره، وفي كل حال فإن ذوي الحاجة منتفعون ، ومع ذلك يلحظ تقديم الإنفاق سراً فـــي مثل هـــذا السياق لأنـــه دون ريـــب

---

(١) سورة البقرة : آية [٣٠] .

(٢) التحرير الجزء الأول الكتاب الأول ص ٤١٨

(٣) سورة البقرة : اية [٢٧٤] ..

الأقرب إلي باب القبول لكونه ادل على الإخلاص وابعد عن الرياء، ومن هنا وجدنا الحديث الشريف يحرض النفوس الخيرة على الحرص على إخفاء مايتصدقون به ماامكنهم ذلك فكان احد السبعة الموعودين بإظلال الله تعالى يوم لاظل إلا ظله : [.. **ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لاتعلم شماله ماانفقت يمينه**] ومن هنا نلحظ سبق الليل على النهار في المطابقة السابقة لمناسبة الإنفاق سراً لليل ، اذ شأنه الستر بالظلمة ، كما أن في مقابلة : [علانية] بلفظ النهار مناسبة من حيث إن النهار زمن انكشاف الظلمة وحلول الضياء بما تظهر معه الأشياء التي كانت مستورة بظلمة الليل، فمؤدى الجمع بين الإنفاق سراً وعلانية من بعد الجمع بين الإنفاق بالليل والنهار ومقابلة كل طرف بما يناسبه إفادة مداومة امثال هؤلاء على الإنفاق في كل وقت وفي كل حال ، ولهذا فهم جديرون بما بشروا به من الأجر واختصاصهم به ، فهم وحدهم اصحابه لايتجاوزهم إلى غيرهم، ولاينازعهم فيه غيرهم ، كما إنه محفوظ ومصون عند من لايضيع عنده شئ سبحانه وتعالى ، خاصة وأنه ربهم ومايفيده مثل هذا الوصف في نحو هذا المقام من تمام الرعاية والحفظ وعدم التضييع : ﴿ **فلهم اجرهم عند ربهم** ﴾ ولاشك في أن الموعود بمثل هذا يكون على حال تخلو عن كل مايجلب الخوف [**فلاخوف عليهم**] وإذن فلا موجب لإستيلاء شئ من الحزن عليهم فهو منفي عنهم حتماً : [**ولاهم يحزنون**] .

المشرق والمغرب :

يرد الطباق في القرآن الكريم بين المشرق والمغرب مع اختلاف الصياغة افراداً أو تثنية او جمعا لاختصاص كل مقام بما يقتضيه .

فحيث افرد الله تعالى لفظ المشرق والمغرب اريد بهما الجهة نفسها التي

تشتمل على المطالع جميعاً والأخرى على تلك المغارب من غير نظر إلى تعددها، وحيث جئ بلفظ الجمع فيهما فالمراد كل فرد منهما على جهة التفصيل اذ تتعدد وتختلف المطالع والمغارب على مدى العام كله ، فالشمس في كل يوم مطلع خاص لاتطلع منه في يوم آخر من ايام العام ، كما أن لها في كل يوم مغرباً خاصاً لاتغرب منه في يوم آخر في ذات العام ، وحيث كان التعبير بلفظ التثنية ، فالمراد بأحدهما الجهة التي تأخذ منها الشمس من مطلع الإعتدال إلى آخر المطالع والمغارب الجنوبي ، وبهذا الإعتبار مشرقان ومغربان .

واما وجه اختصاص كل موقع بما ورد عليه فالأهل علوم القرآن والباحثين في اساليبه كلام جيد .

يذكر صاحب البرهان نقلاً عن بعض اهل العلم أن تثنية المشرق والمغرب في آية الرحمن [**رب المشرقين ورب المغربين**][1] فلأن سياق السورة سياق المزدوجين ، فإنه سبحانه أولاً ذكر نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعليم ، ثم ذكر سراجي العالم ومظهر نوره ، وهما: الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات، فإن منه ماهو علي ساق ، ومنه ماانبسط على وجه الأرض ، وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض ، ثم أخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ، ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان ، فأمر بالعدل، ونهى عن الظلم ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض ، وهما الحبوب ، ثم ذكر نوعي المكلفين، وهما نوع الإنسان والجان ثم ذكر نوعي المشرق والمغرب، ثم ذكر بعد ذلك البحر من الملح والعذب ، فلهذا حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة الكريمة .

وأما الإفراد في موقع المزمل فقوله تعالى : ﴿ **رب المشرق والمغرب لإله إلا هو فاتخذه وكيلا** ﴾[2]. فلأنه قد تقدم ذكر الليل والنهار : تممه

---

(١) سورة الرحمن : اية [١٧]. (٢) ، اية [٩].

بذكر المشرق والمغرب ، اللذين هما مظهر الليل والنهار، فكان ورودهما منفردين في هذا السياق انسب فالتثنيـــة والجمع، لأن ظهور الليل والنهار فيهما واحد .

وإنما جمعا في سورة المعارج في قوله : ﴿ فلا اقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ومانحن بمسبوقين﴾ (١) لأنه لما كان هذا القسم سعة مشارق ربوبيته، وإحاطة قدرته، والمقسم عليه اذهاب هؤلاء، والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب لتضمنها انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة ، ونقله سبحانه لها، وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب ، فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل إلى امكنتهم خيراً منهم .

وايضاً فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان امر مشهود، وقد جعله الله بحكمتة سببا لتبدل اجسام النبات وأحوال الحيوانات وانتقالها ،. من حال إلى حال، ومن برد إلى حر، وصيف وشتاء، وغيرذلك بسبب اختلاف مشارق الأرض ومغاربها، فكيف لايقدر مع مايشهدونه من ذلك على تبديل من هو خير؟ وأكـد هـــذا المعنـــى بقولـه : ﴿ ومانحن بمسبوقين ﴾ فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظ لجمع (٢)

اليمين والشمال :

يلحظ أن عرف الأستعمال القرآني جرى على افراد كل من اليمين والشمال في غالب المواقع ، وجمع الشمال في بعض المواقع مع افراد اليمين ، كما ورد كلي اللفظين جمعاً، ولا ريب في أن من وراء كل استعمال مغزاة واسراره حسبما يقتضيه سياق الكلام واحواله .

ومن ذلك افراد لفظ اليمين والشمال في قوله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ (٣) حيث المراد يمينه وشماله ﷺ ، فقـد كان من

---

(١) سورة المعارج آية [٤٠ . ٤١] (٢) البرهان في علوم القرآن ج ٤ ص ١٥ ومابعدها.
(٣) سورة المعارج الآية [٣٧] .

دأب المشركين افراطاً في الكيد له ﷺ أن يأتوا بعض مجالسه مسرعين ويتحلقون حول مجلسه حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً ، ويستهزءون بكلامه ﷺ ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت : ﴿ ايطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ [١] بلا إيمان، فكان الرد عليهم : [كلا] ردعاً عن ذلك الطمع الفارغ .

واما جمع اليمين والشمال في قوله تعالي في قصة ابليس عليه اللعنة حين اجيب وامهل فصرح بما يكشف عن خبيث مقصده وغاية اضلاله : **﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد اكثرهم شاكرين ﴾** [٢].

الغرض هنا كما هو واضح المبالغة في تصوير كيد هذا الشيطان الرجيم ، وأنه يجد في محاولة اضلاله فلايدع لذلك سبيلاً إلا ويسلكه ، ومن هنا اورد كلامه على هذا المورد المؤكد والمستوعب لأكثر الجهات الست حيث ذكر اربع منها ، كما اقتضت المبالغة ابراز هذه الجهات جميعا بصورة الجمع المفيد بصريح لفظه التعدد والكثرة .

وقد يقال فلم سكت عن ذكر الجهتين الآخريين ، وهما جهتا الفوق والتحت ، وهما يزيدان امر المبالغة المقصودة

والجواب عن هذا يبحث عنه في باب الإكتفاء ، وقد عالجت صوراً منه في بحث خاص فليراجع من هناك لإنى لاحب تكرار ماكتب .

---

(١) سورة المعارج : آية [٣٨] . (٢) سورة الأعراف الآيتان [١٦ ، ١٧] .

وأما ورود احد طرفي هذه المطابقة مفرداً والآخر جمعاً نظير قوله تعالى : **﴿ اولم يروا إلى ماخلق الله من شئ يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾** (١) .

فالمراد باليمين والشمال في هذا السياق أي : الم يروا الأشياء التي لها ظلال متفيئة عن ايمانها وشمائلها : أي : عن جانبي كل واحد منها استعير لهماذلك من يمين الإنسان وشماله . (٢).

ويذكر الفخر في احد قوليه [أن يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب، والسبب في تخصيص هذين الإسمين بهذين الجانبين أن اقوى جانبي الإنسان يمينه، ومنه تظهر الحركة القوية ، فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق إلى المغرب، لاجرم كان المشرق يمين الفلك ، والمغرب شماله] .

إذا عرفت هذا فنقول : إن الشمس من عند طلوعها إلى وقت انتهائها إلى وسط الفلك يقع الإظلال إلى الجانب الغربي، فإذا انحدرت الشمس من وسط الفلك إلى الجانب الغربي وقع الإظلال في الجانب الشرقي، فهذا هو المرادمن تفيؤ الظلال من اليمين إلى الشمال وبالعكس ، وعلى هذا التقدير: فالإظلال في اول النهار وتبتديء من يمين الفلك على الربع الغربي من الأرض ، ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك يبتدئ الإظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الأرض (٣).

كما يذكر الفخر تعليلا لإفراد اليمين وجمع شمائل : [إنه وحد اليمين والمراد جمع ولكنه ، اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى : [**ويولون الدبر**] .

---

(١) سورة النحل : آية [٤٨] . (٢) تفسير ابو السعود جـ ٥ ص ١١٨

(٣) تفسير *الفخر الرازي* جـ ٢٠ ص ٤٢ .

وهذا التوجيه لايفي بتمام المطلوب اذ تبقي الحكمة من وراء إيثار التعبير في جانب اليمين بصورة المفرد مع التعبير فيما يقابلها بلفظ الجمع .

وكذلك ماقيل من أن العرب قد جرى عرف استعمالها على إنه اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى : **﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾** وقوله **﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾** (١).

ويذكر الفراء : كأنه اذا وحد ذهب إلى واحد من ذوات الظله وإذا جمع ذهب إلى كلها (٢) .

وعند صاحب البرهان أن الحكمة في تحصيص اليمين بالإفراد أنه لما كانت اليمين جهة الخير والصلاح ، واهلها هم الناجون افردت، ولما كانت الشمال جهة اهل الباطل وهم اصحاب الشمال جمعت في قوله : **﴿ عن اليمين والشمائل ﴾** (٣) .

هكذا يرى الزركشي ، وقد ذكر وجوها اخرى عديدة منقولة عن ائمة اللغة ولعل اقربها جميعاً مانقله عن الرماني : [أن الظل حين ينشأ اول النهار يكون في غاية الطول، ثم يبدوا كذلك ظلا واحدا من جهة اليمين، ثم يأخذ في النقصان، واذا اخذ في جهة الشمال فإنه يتزايد شيئا فشيئا ، والثاني فيه غير الأول، فكلما زاد فيه شيئا فهو غير ماكان قبله، فصار كل جزء منه ظلا.فحسن جمع الشمائل في مقابلة تعدد الظلال .

---

(١) تفسير *الفخر الرازي* جـ ٢٠ ص ٤٣ .
(٢) يراجع معاني *القرآن* جـ ٢ ص
(٣) *البرهان* جـ ٤ ص ١٢ .

واما افراد لفظ الشمال في قوله تعالى : [**واصحاب الشمال ماأصحاب الشمال**][1] في مقابلة : [**واصحاب اليمين ماأصحاب اليمين**][2] فلأن المراد أهل هذه الجهة يصيرهم إلى جهة واحدة ، وهي جهة اهل الشمال مستقر اهل النار، فإنها من جهة اهل الشمال فلا يحسن مجيئها مجموعة.

واما افرادهما في قوله : [**عن اليمين وعن الشمال قعيد**][3] فلأن لكل عبد قعيدا ، أي: مقاعدا له وملازما لايفارقه عن يمينه وآخر عن شماله يحصيان عليه مايصدر عنه من خير أو شر، فلا معنى للجمع معهما خاصة وأن هذا التركيب .

وارد في سياق آيات تتحدث عن لطفه تعالى ووصول علمه إلى خطرات النفس وهو اقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان مايتلفظ به ايذاناً بأن استحفاظ الملكين إنما هو غني عنه، وكيف لايستغني عنه وهو مطلع على اخفي الخفيات، أو المعنى: ونحن قريبون منه مطلعون على احواله مهيمنون عليه اذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به .

---

(١) سورة الواقعة : آية [٤١].
(٢) سورة الواقعه : آية [٢٧] .
(٣) سورة ق : آية [١٧] .

بين السموات والأرض :

ورد الجمع والمطابقة بين الأرض والسماء في مواضع كثيرة من النظم القرآني العظيم مع افراد الأرض في مقابل السماء دائما على حين جمعت السماء في اكثر المواضع ، وجاءت مفردة في بعض منها، كما قدمت الأرض في الأكثر، وكذلك فقد وصلت كل من الأرض والسماء تارة باسم الموصول [ما] وتارة أخرى بمن، على حين اكتفى بأحد الموصليـن مع احد الطرفين دون الآخر في مواضع اخرى .

ومن المسلم أن من وراء كل هذه الاستعمالات مغزى وخصوص معنى يرشد إليه السياق الخاص في كل موقع.

واول مايلحظ أنه حيث وردت المطابقة بين الأرض والسماء افردت الأرض دائما .

والحكمة في ذلك كما يذكر اهل العلم أن الأرض بمنزلة السفل والتحت، ولكن وصف بها هذا المكان المحسوس فجرت مجرى امرأة زور وعدل وضيف فلا معنى للجمع كما لايجمع الفوق والتحت، والعلو والسفل، فأما إن قصد المتكلم إلى جزء من هذه الأرض الموطوءة وعين قطعة محدودة منهاخرجت عن معنى السفل المقابل بالعلو وصحت تثنيتها اذا ضممت إليها جزءا آخر، وعلى هذا يجري ماروي عنه ﷺ [طوقه من سبع ارضين] فجمعها لما اعتمد الكلام على ذات الأرض، وأثبتها على التفصيل والتعيين لآحادها ، دون الوصف بكونها تحت أو سفل في مقابلة علو .

واما جمع السموات فإن المقصود بها ذاتها دون معنى الوصف، فلهذا جمعت جمع سلامة ، لأن العدد قليل، وجمع القليل اولى به ، بخلاف الأرض، إن المقصود بها معنى التحت والسفل، دون الذات والعدد .

وأيضا فإن الأرض لانسبة إليها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسب إليها كحصاة في صحراء ، فهي وإن تعددت كالواحد القليل، فاختير لها اسم الجنس .

وأما اذا اريد الوصف الشامل للسموات وهو معنى العلو والفوق افردت كالأرض بدليل قوله تعالى : ﴿ ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء ﴾ (١) بخلاف قوله تعالى في سبأ : ﴿ عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ .

فإن قبلها ذكر الله سبحانه سعة علمه، وأن له مافي السموات ومافي الأرض ، فاقتضى السياق أن يذكر سعة علمه ، وتعلقه بمعلومات ملكه ، وهو السموات كلها والأرض .

وحيث لم يكن في سورة يونس مايقتضي ذلك افردها ارادة الجنس .

وقال السهيلي : [لأن المخاطبين بالإفراد مقرون بأن الرزق ينزل من السحاب وهو سماء، ولهذا قال في آخر الآية : [فسيقولون الله] (٢) وهم لايقرون بما نزل من فوق ذلك من الرحمة والرحمن وغيرها، ولهذا قال في آية سبأ [قل الله] (٣) أمر نبيه ﷺ بهذا القول ليعلم بحقيقته] (٤).

ومن ذلك ايضاً قوله تعالى : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ﴾ فقد جاءت السموات بصيغة الجمع لتعلق الظرف بما في اسم الله تبارك وتعالى من معنى الإلهيه ؛ فالمعني : هو الإله المعبود في كل واحدة من السموات ، فذكر الجمع هنا انسب بالغرض لدلالته على التفصيل وتناول كل آحاد السماء .

---

(١) سورة يونس : اية [٦١] . (٢) سورة يونس : آية [٣١] .

(٣) سورة سبأ : آية [٦١]

(٤) البرهان في علوم القرآن جـ ٤ ص ٧.

ثم لنتأمل كيف جاءت السماء مفردة في قوله تعالى : **﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما انتم تنطقون ﴾** (١) فالمعنى: انه تعالى رب لهذين الجنسين ، أي : رب كل ماعلا وسفل ، لهذا كان الإفراد اليق .

ثم لننظر كيف أن السماء قد وردت مجموعة دائماً مع قولـــه تعالى : **﴿ سبح لله مافي السموات والأرض ﴾** [ونظـــائـــرة] في جميع صور القرآن ، حيث كان الغرض : الأعلام بتسبيح من فيها على كثرتهم ، وتباين مراتبهم واختلاف اجناسهم ، فحينئذ كان جمع محل سكنهم ادل على هذا المعنى .

ونظير هذا ورود السموات مجموعة في قوله تعالى : **﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ﴾** (٢) .

واما قوله سبحانه وتعالى : **﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾**(٣)فلأن الغرض : تسبح بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، ولهذا صرح بالعدد بقوله : [السبع] هذا مايذكره صاحب البرهان (٤) ولم لايكون الغرض ممتداً إلى تسبيح مافي السموات ايضاً ؟ ويرشح هذا عطف، [من فيهن على لفظ] [الأرض] دلالة صريحة على تناول التسبيح وعمومه لكل من المحل والحال ايضا ، ولهذا ورد في الآية الكريمة التعقيب بما يفيد حصول التسبيح من سائر الكون واجناس في قوله تعالى : **[وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا]**(٥) .

---

(١) سورة الذاريات : آية [٢٣]	(٢) سورة الأنبياء : اية [١٩]
(٣) سورة الإسراء : اية [٤٤]	(٤) البرهان : جـ ٤ ص ٨ .
(٥) سورة الذاريات : اية [٢٢] .

كما جاءت السموات مجموعة في قوله تعالى : ﴿ **قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾[١] حيث كان المراد : نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة ، لأن المقام يقتضي هذا النحو من التوكيد في نفي علم الغيب عن كل احد واثباته للحق تبارك وتعالى، فإنه تعالى هو المتفرد بعلم الغيب دون منازع .

ثم لنتأمل ماوراء مجئ السماء مفردة تاره ومجموعة تارة اخرى في آيتين متشابهتين نظما ففي يونس جاءت مفرده قوله تعالى : [**قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار**][٢] وفي سبأ جاءت مجموعة في قوله سبحانه وتعالى : [**قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله** ..][٣].

ولاريب في أن ثمت فرقاً بين الموقعين استتبع هذه المغايرة، والسياق في كل آية يرشد إلى الفرق .

فإن سياق الآيات مع موقع يونس في مقام الإحتجاج على القوم بما اقروا به هم من كونه تعالى هو رازقهم ومالك اسماعهم وابصارهم، ومدبر شؤنهم ، بأن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله ، حسن الإحتجاج به عليهم ، اذ فاعل هذا هو الله الذي لاإله غيره ، فكيف يعبدون معه غيره، ولهذا جاء بعده قوله تعالى : [فسيقولون الله] أي : هم يقرون به ولايجحدونه ، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى ينتهي إليهم ، فأفردت لفظة [السماء] هنا لذلك .

---

(١) سورة النمل : اية [٦٥] .
(٢) سورة يونس : اية [٣١] .
(٣) سورة سبأ : اية [٢٤]

واما موقع سبأ فلها سياق آخر ، فإنه لم ينتظم لها ذكرإقرارهم بما ينزل من السماء ، ولهذا امر رسوله ﷺ بأن يجيب ، وأن يذكر عنهم أنهم هم المجيبون ، فقال : [**قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله**] ، ولم يقل : [**فسيقولون الله**] اي : الله وحده الذي ينزل رزقه علي اختلاف انواعه ومنافعه من السموات(١).

من حيث التقديم والتأخير :

جاء قوله تعالى : [**إن الله عالم غيب السموات والأرض**] (٢) فقدم ذكر السموات لأن معلوماتها اكثر، فكان تقديمها ادل على وصف العلم ،كما أن السموات مجال كوني فسيح فهي بهذا ايضاً ادل على علم ماغاب من حيث أن اهل الأرض لايكادون يدرون عن امر مافيها سوى القليل ، أما علمه تعالى فمحيط بمافيها وغاب .

وفي موقع آخر من القرآن العظيم يقول تبارك وتعالى : [**قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات**] (٣)

[فبدأ تعالى بذكر الأرض ، لأنه في سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة ، وأمر الأرض في ذلك ايسر من السماء بكثير، فبدأ بالأرض مبالغة في بيان عجزهم ، لأن من عجز عن ايسر الأمرين كان عن أعظمهما أعجز] (٤).

---

(١) البرهان جـ ٤ ص ٩ .
(٢) سورة فاطر الآية [٣٨] .
(٣) سورة فاطر : آية [٤٠] .
(٤) البرهان جـ ٧ ص ٢٨٥، ٢٨٦ .

ثم قال سبحانه﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾[١] فقدم السموات تنبيها على عظم قدرته سبحانه ، لأن خلقها اكبر من خلق الأرض، كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ **لخلق السماوات والأرض اكبر من خلق الناس** ﴾ [٢] ومن قدر على إمساك الأعظم كان على إمساك الأصغر أقدر .

ولايقال ولم ذكر الأرض مادام ذكر السماء ادل على الغرض ، لأن بذكر الأرض يكون معنى المطابقة المحقق لعموم القدره وتمام السلطان فالجمع بين السماء والأرض على هذا النحو أظهر وابين إذن في الدلالة على المعنى والمراد .

السماء والأرض من حيث التعلق بالموصول :

ورد في القرآن الكريم كل من السموات والأرض مقترنين باسم الموصول [من] في اربعة مواضع ، وفي تسع مواضع إن فردت السموات بمصاحبتها اسم الموصول [من] على حين خلت لفظ الأرض منها، كما ورد اسم الموصول [ما] مصاحباً لكل من لفظي السموات والأرض في ثمانية وعشرين موضعا على حين ذكرت [ما] مع السموات خاصة في احد عشر موضعا .

ولاريب في أن من وراء كل موضع وإيثار ماورد عليه حكمه بيانيه يكشف عن شئ منها تأمل السياقات .

وبما أن المجال الآن لا اراه يتسع لمثل هذا التتبع المستقصي أو التحليل المستفيض رأيت الإكتفاء بنموذج من هذه الطرق التي ورد التعبير عليها .

يذكر بعض اهل العلم والبصر بأساليب القرآن الكريم أنه حيث قصد التنصيص على الإفراد ذكر حينئذ الموصول والظرف ، ألا ترى إلى المقصود

---

(١) سورة فاطر الآية [٤١] . (٢) سورة المؤمنون آية [٥٧] .

في سورة يونس في قوله تعالى : ﴿ **ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء** ﴾ (١) من نفي الشركاء الذين اتخذوهم في الأرض، وإلى المقصود في آية الكرسي في إحاطة الملك، وذلك قوله تعالى : ﴿ **له مافي السموات ومافي الأرض** ﴾ (٢) ، لكن اذا قصد امر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس وللإهتمام بما هو المقصود في تلك الآية ، الا ترى إلى آية الرحمن في قوله تعالى : ﴿ **يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن** ﴾ (٣) المقصود منها علو قدرة الله تعالى واحاطة علمه جل شأنه وكونه مسئولا ، ولم يكن القصد اصلاً إلى أفراد السائلين (٤).

مع الحديث الشريف :

ومن بليغ المطابقة مايروية الرسول ﷺ عن ربه جل وعلا [إن الله تعالى يبسط يده بالليل، ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها] (٥) رواه مسلم .

الحديث كما هو واضح في معرض الدلالة على مزيد فضلة تعالى ولطفه بخلقه ، واستدامة ذلك الشأن على مدى الزمان حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً،وبما أن الزمان ليس غير ليل ونهار، ولا ثالث فتفضله تعالى على خلقه بقبول التوبة ممن يقبل على الله تعالى ليلاً او نهاراً يدل على عموم الفضل وغلبة الرحمة ودوام اللطف،ثم إن نلحظ في اللفظ المتعلق به ظرفا الزمان [الليل والنهار] وطريقة صياغته مايشير ويرمز إلى تمام الفضل وقبول التوبة والحث عليهاوحفز الهمم والنفوس للإقبال على ذلك الباب الذي لايوصد فالتعبير ببسط اليد مع صياغة المضارعة مع الإسناد إلى ضمير

---

(١) سورة يونس : اية [٦٦] .
(٢) البقرة : اية [٢٥٥] .
(٣) سورة الرحمن : آية [٢٩] .
(٤) البرهان جـ ٤ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٥) دليل الفالحين جـ ١ ص ٨٧ .

الجلالة : [إن الله يبسط يده] اذ أن بسط اليد عبارة عن الطلب، لأن عادة الناس إذا طلب احدهم شيئا من احد بسط كفه ، أو هو عبارة عن الجود والتنزه عن المنع، أو هو عبارة عن بالغ رحمته تعالى وتجاوزه عن اخطاء خلقه وخطاياهم .

وقال الطيبي : لعله تمثيل : شبه حال إرادته تعالي التوبه من عبده وأنها مما يحبه ويرضاه بحالة من ضاع له شئ نفيس لاغني له عنه ثم وجده مع غيره ، فإنه يمد يده إليه طالبا متضرعا، ثم استعمله في جانب المستعار منه وهو بسط اليد مبالغة في تناهي التشبيه وادعاء أن المشبة نوع من المشبه به (١).

وقبول التوبة حاصل ومتجدد مادام بابها مفتوحا وإليه الاشاره بقوله : ﴿ حتى تطلع الشمس من مغربها ﴾ فحينئذ يغلق بابها .

ومما يدخل في احاديث المقابله مايروي عن الرسول ﷺ [لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً] (٢).

واضح أن اسلوب المقابلة بين [تغدوا وتروح] وخماصاً وبطاناً شارحة ومبينة كيف يكون التوكل على الله تعالى ، وماهو حقه وماثمرته وذلك بالتعبير عن احوال محسة ومشهوده ، فإن الطير بحكم الغريزة والفطره التي اودعها الله اياها تأتي احوالها في باب المعاش بما ينبغي على اولى العقول من البشر تدبره وتمثله، فمن الطير يكون ذهاب ومجئ ، ثم إنه ليس ذهاباً ومجيئاً على أي نحو وكيفما اتفق، وإنما هو ذهاب فيه معنى الرمز إلى المبادرة والمبادئه والوقت الأمثل ، فهو ذهاب غدو، ثم إنه مقيد بحال تشير إلى ماورائها من مقصد وغرض يكون من وراء الذهاب بالغدو، فالطير تغدو

---

(١) دليل الفالحين جـ ١ ص ٨٧ . (٢) دليل الفالحين جـ ١ ص ٢٧١ .

خماصاً ، فكأن الدافع والحافز لهذا الغدو ماعليه حالها من خلو أجوافها من القوت حتى اذا ماحصلت رزقها الذي سعت إليه عادت اذ لامعنى للمكوث ، وتلك الحال من الطير متجدده ومتكرره .

وعلى هذا فليس في الحديث الشريف مايدل على القعود عن الكسب ، بل فيه ما يدل على طلب الرزق وبذل الجهد والمبادرة إلى الوقت الأمثل ثم عدم الذهاب في هذا الباب إلى المدى الذي يستغرق على المرء زمانه فيصيره ذلك إلى حال وكأنه على غير وثوق من رزق الله فيظل على حال الكد بداعي تحصيل الرزق حتى لكأنه لايروح بل هو يغدو دائماً ، وذلك على غير وفاق ومعنى التوكل ، فحق التوكل إذن يقتضي الحالين، أما مايكون من احوال اولئك القاعدين والكساله والمتثائبين فذلك جهل وسفه وظلم للنفس وظلم للدين ايضاً ،فهم بذلك يفتحون علي الدين ابوابا رحبه يدخل منها كثير من الطاعنين فيه والمتربصين به والمترصدين له، ثم إنه من بعد ذلك ومن قبله أمارة ضعف وعلة للتخلف الذي لازالت تعاني من آثاره هذه الأمه ، ولو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سالمين غانمين كالطير تغدوا خماصا وتعود بطانا، لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ويغشون ويكذبون ولاينصحون ، أو يركنون ويكسلون ، وهذا وذاك خلاف للتوكل على الله تعالى حق توكله .

ومن ذلك ايضا مايروي عن النبي ﷺ أنه قال: [مانهيتكم عنه فاجتبنوه ومالمرتكم به فأتوا منه مااستطعتم ، فإنما اهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم ،واختلافهم على انبيائهم] (١).

---

(١) الأربعون النووية ص ٢٥ .

المقابلة في الحديث الشريف بين النهي واجتنابه والأمر وأتيان المستطاع منه .

ويلحظ في البيان النبوي التعبير في جانب المنهي عنه بما يفيد العموم وتركه جمله ، فقوله ﷺ [فاجتنبره] بعني : لاتفعلوه ولا شيئاً منه، اذ المحرم محظور في كل حال.

واما في جانب المأمور به فقد علق بما يستطاع فقوله ﷺ [وما امرتكم به فأتوا منه ماستطعتم] فهذا التقييد يشير إلى مدى يسر الدين والترفق بأهله والقائمين عليه فباب الحلال والمأمور به متسع تتبارى فيه الفئة المؤمنه وكل يسعى بحسب طاقته وعلى درجة إيمانه وتقواه ، فالمجال فسيح، ثم إن الأمر موكول إلى القلوب والبصائر التي تعي أن ماكلف الله تعالى إلا بما يطاق فتجتهد في تمثله والعمل على مقتضياته .

ثم إن في التعبير بفعل الإجتناب يفيد معنى المبالغة في ترك المنهي عنه، فاللفظة بمادتها وصياغتها تدل على المباعدة والمجانبة للمحرم والمحظور وأن يبذل المرء الجهد في أن يجانب الحرام فلا يلاقيه او يعاينه او يباشره ، كما أن التعبير مع المأمور به بلفظ الإتيان يدل على أن حق الإيمان والتقوى يقضيان بأن يفعل المؤمن التقي مأأمر به عن رضا وطيب نفس وسماحة طبع فهو يفعل ذلك في يسر لاعسر فيه .

وأما تقديم المنهي عنه واجتنابه على المأمور به والأتيان منه على المستطاع فلإن المنهي عنه من الحرام والمحظور هو مفسده ومن ورائه ضرر وهلاك وخسران ، والمأمور به حلال ومندوب إلى فعله وفيه خير ونفع وفوز، وترك المفاسد والمهالك يكون أولا، اذ به تطهير النفوس وتصفية القلوب فتكون من بعد متلقية ماتأمر بأمتثاله وهي في حال تؤهلها لذلك .

* * *

في الشعر

من الثابت والمعلوم تاريخياً ومن حيث واقع الإستعمال الأدبي أن امثال صور الطباق والمقابلة تعد من الضروب القديمة التي عبر بها الشعراء والأدباء منذ العهد الجاهلي وإن كان من المعلوم والثابت ايضاً تفاوت الشعراء في طبيعة هذا الاستعمال ومداه فعلى حين نجد صوراً من الطباق والمقابلات متفرقه في أشعار امثال امرئ القيس وزهير والنابغة والشنفري وابن الرومي نرى هذا الضرب من البديع منثوراً في شعر امثال البحتري ومسلم على نحو واضح وكذا عند ابي تمام ولكن على مزاج أخر وطبيعة مختلفة .

فالطباق يعد ابرز واهم لون بديعي يستخدمه البحتري حتى إنه قد عرف به ولكنه استخداماً فطرياً على نمط ماكان يستخدمه من سبقوه من شعراء الجاهليه وليس كما كان عليه الحال عند ابي تمام، فقد صيره إلى نحو آخر وصبغه بطبعه وعقله وثقافته حتى لكأننا بإزاء ضروب وصور من الطباق جديده ومختلفة عما ألفناه عند غيره .

وحتى يتضح هذا الأمر نذكر مثلاً من اشعار البحتري وقد انتشر فيه الطباق ، ثم نسوق بعض شواهد من شعر ابي تمام مما استخدم فيها صور الطباق والمقابلات ليظهر من خلال هذه المقارنة طبيعة الخلاف في استخدام الضرب الواحد، ومابين الشاعرين من تغاير وتباين .

يقول ابو عبادة البحتري :

مني وصل ومنك هجـــر	وفـــي ذل وفيـك كبـــر
وماســـواء إذا التقينـــا	سهل علـى خلـة ووعر
قد كنت حرا وأنت عبـد	فصرت عبداً وأنت حر
برح بـي حبـك المعنــى	وغرني منـك مايغـــر
أنت نعيمي وأنت بؤسي	وقـد يسوء الذي يســر

فإنك ترى في هذه الأبيات ينتشر الطباق ، الذي عرف به البحتري ،

ولكنه طباق قريب لاتعقيد فيه ولا غموض ولا اغراب ، ولاعمق ايضا، هو اشبه مايكون بتداعي المعاني، إنما هو وصل وهجر، وذل وكبر، وسهل ووعر، وعبد وحر، ونعيم وبؤس ، واساءة وسرور .

ثم انظر إلى استخدام هذا الطباق عند ابي تمام ، فإنك تراه يستخرج منه اصباغاً تحير وتعجب، واقرأ لابي تمام هذا البيت الذي يصف فيه بعيره ومأأصابه من نحول وسقم لكثرة أسفاره ، إذ يقول :

رعته الفيافي بعد ماكان حقبة
رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فإنك تحس غرابة في الأداة ، وكأنها تخالف مخالفة تامة تلك الأداة من الطباق التي رأيناها عند البحتري ، وذلك أن أبا تمام لايلجأ إلى المطابقة والمقابلة بين الأشياء كما توحي الذاكرة بل هو يعود إلى عقله وفلسفته فيعمل فكره، ويكد ذهنه، حتى يستخرج هذه الصورة الغريبة من التضاد، فإذا بعيره يرعى ويرعى ، يرعى الفيافي وترعاه الفيافي ، وهو رعي غريب استحوذ على جهد عنيف من الشاعر، حتى استطاع أن يستخرج هذه الصورة المتناقضة أو المتضادة ، والتي يحس الإنسان بإزائها إحساساً واضحاً أنها من نوع آخر غير طباق البحتري، فطباقه ليس فيه فلسفة وليس فيه عمق وليس فيه تفكير بعيد .

ومع وضوح امر الإختلاف بين ابي تمام والبحتري إلا أنه لايفهم حتماً أن التقدير والأعتراف لأبي تمام يستتبع الذم والقدح في طريقة البحتري فلأبي تمام مذهب خاص وللبحتري طبع واتجاه ومن هنا لانود أن نذهب إلى القول الذي قيل بأن طباق البحتري طباق ساذج لاقيمة له هو [طباق الذاكرة] إن صح هذا التعبير، فهو يذكر الوصل فيأتي الهجر، وهو يذكر الذل فيأتي الكبر، وهو يذكر السهل فيأتي الوعر، وعلى هذا النظام مايزال

يصوغ طباقه فلاتحس فيه جمالا إلا حين يخرج به إلى الملاءمة بين الأصوات (١).

والذي نراه ان اختلاف الطريقتين بين الشاعرين وتقدير أحداهما لايجعلنا نحط من شأن الطريقة الأخرى على هذا النحو ، فإن شعر البحتري هذا لايخلوا عن معنى وغرض يريد الشاعر العبارة عنه ، وتلك المطابقات وتتابعها على هذا النحو تعد الأسلوب الأمثل في ابراز مدى التباين بين حالين حال الشاعر وحال من يحادثه، أو ماالحديث في شأنه ، ولتلك المباينه ظواهر فكانت هذه المطابقات المعرض الذي ابرز فيه الشاعر الوان هذه المغايرات بين الحالين، فإما أن تحرم من كل عناصر الأدب الجيد فنرى فيه شيئاً من التحامل .

ثم نعود من بعد ذلك إلى شعر ابي تمام لنتعرف اكثر على إضافاته لهذا الضرب وطبائعه من شعره .

ومن ابرز واهم ماتمتاز به مطابقات ابي تمام انها تأتي ممتزجة بألوان التصوير وذلك نظير قوله :

كل يوم له وكل أوان   خلق ضاحك ومال كئيب

فنراه يطابق بين [الضحك والكابة] ونجد هذا الطباق ممزوجا بنوع آخر من الصنعه وهو حسن التصوير، فالخلق لايضحك ، والمال لايكتئب إلا عن طريق التشخيص والتصوير ، وذلك بإسناد الضحك للخلق، والكآبة للمال، ومثله قوله :

ألبست فوق بياض مجدك نعمة
بيضاء تسرع في سواد الحاسد

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٩٥ .

فهنا طباق بين [البياض والسواد] وقد انغمس في لون من ألوان التصوير، فقد وصف نعمة الممدوح بالبياض ، وجعله يسرع في السواد، وينتشر فيه ، كما عبر عن ضيق الحاسد وغيظة بالسواد، وقال ايضا :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد
فأجرى لها الاشفاق دمعاً مورداً من الدم يجري فوق خد مورد
هي البدر يغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد

نرى الطباق في البيت الثاني بين [تودد، لم تودد] فوجهها يتودد بسحره وجماله ، ولكنها ترفض التودد وتظهر الإباء والتمنع ، فنراه طباق عمل معنى غريبا فلسفيا ، وهو التضاد .

فأبو تمام يشق على نفسه في استعمال ألوان البديع وينهج منهجاً جديداً ، فهو يكد فيه ذهنه، ويستعين بثقافاته حتى يخرج هذا الضرب وامثاله مخالفاً بذلك نهج من سبقوه من الشعراء .

وهذا المزج بين التصوير والطباق واقع في نظم القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه** ﴾ (١) أي : ضالا فهديناه، ففي الآية طباق بين الموت والحياة، مع استعارة الموت للضلال والحياة للهداية .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **كتاب انزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ (٢) فمع الطباق بين الظلمات والنور: نجد حسن الاستعارة في كل منهما ، فتلاحم البديع وتعانقه مع المجاز في مثل هذه المواضع في القرآن الكريم يتطلبه المقام ويستدعيه الحال دون ماكلفه فهو نمط وحده وطراز في الأستعمال فريد .

---

(١) سورة الأنعام : آية [١٢٢] . (٢) سورة ابراهيم : اية [١] .

ولأبي تمام مسلك آخر في الطباق فقد أتى منه بضرب غريب وغير مألوف ولا معروف طباق فيه تناقض وفيه تضاد وقد سماه [نوافر الأضداد] .

يقول ابو تمام في مدح ابن أبي دؤاد :

قد بثثتم غرس المودة والشحناء	في كل قار وبادي
ابغضوا عزكم وودوا نداكم	فقروكم من بغضه ووداي
لاعدمتم غريب مجد ربقتم	في عراة [نوافر الأضداد]

قال التبريزي نقلا عن المرزوقي : يعني ب [نوافر الأضداد] ماقاله في البيت الثاني : [فقروكم من بغضة ووداي] يريد مافي قلوب الناس من الحسد لشرفهم ، وارتفاع منزلتهم، ومن الحب والود لجودهم وإفضالهم ، قيل لأعرابي : [ماعلامة السيد فيكم ؟ قال: الذي إذا غاب جدبناه، واذا حضر خدمناه] فهؤلاء القوم يأتون بوصفين متناقضين وهما: الناس يحسدونهم لشرفهم ، ويحبونهم لجودهم ، وقد جمع هذا التنافر والتناقض، المعنى الجميل ، والطباق البديع .

وكذلك قوله في وصف إحراق المعتصم لمدينة [عمورية] :-

ضوء من النار والظلماء عاكفة	وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت	والشمس واجبة من ذا ولم تجب

فهذا الضوء من الشعل النارية يخالط الظلماء المقيمة ، وهذا الظلام من دخان النار يخالط ذلك النهار والشمس فيحيله إلى ظلام ، فيخيل إلى الناظر في الظلام لهذا، الضوء أن الشمس لاتزال طالعه مع أنها قد غربت ، كما يخيل إليه هذا الظلام أن الشمس قد غربت مع أن الضياء يؤيد أنها لم تغرب ، ففي البيت الأخير قد ذكر الشاعر الشئ وضده في وقت واحد في

الطباق ، وهذا مايسمى [نوافر الأضداد] .

وقد سبق أن هناك نمطاً خاصاً قد جعلوه من الطباق او من ملحقاته وهومايكون بين الألوان على اختلافها مادام لايراد بالد فين حقيقة اللون بل يراد بهما او بأحدهما نوع مجاز وتوريه وهو ماأسموه بالتدبيج وقد مر ذكر معالمه في القسم الأول .

وقد كان ابو تمام يشغف بهذا الضرب واستطاع أن يحلله إلى اصباغه المختلفة وأن يستخدمه استخداماً واسعاً في شعره ، بحيث نستطيع أن نقول أن ابا تمام كان يعتمد على صبغ [التدبيج] حتى يعطي للصورة الوانا حسية ملموسة ، كمانرى في مثل قوله :

كأن سواد الليل ثم اخضراره　　　طيالسة سود لها كفف خضر

وقوله في عتاب صديق :

لاتبعدن أبداً وإن تبعد فما　　　أخلاقك الخضر الربي بأباعد

وإن الإنسان ليخيل إليه كأن أبا تمام استوعب جميع صور التدبيج في شعره ، وكان مايزال يحكم في صوره حتى يقول :

وصلت دموعاً بالنجيع فخدها　　　في مثل حاشية الرداء المعلم

فالدموع اختلطت بالدم وسالت على خدها حتى اصبح كأنه حاشية لرداء مخطط ، أرأيت إلى هذه الصورة ؟ إن ابا تمام يعتمد في ضبطها على [التفصيل] في التدبيج ، وهو كثيراً ماكان يلجأ إليه كأن يقول :

نضا ضوءها صبغ الدجنة فانطوى　لبهجتها ثوب الظلام المجزع

واي طرافة وبراعة في التدبيج تبلغ هذا التصوير ومابه من خيال وتلوين فتلك صاحبته تخلع صبغ الليل بنورها ، وهو صبغ تجري فيه خطوط من

البياض والسواد ، وانظر إلى قوله :

خضت خدها إلى لؤلؤ العقد   وما أن رأت شواتي خضيبا

يقول إن صاحبته قد خضبت خدها بالدمع اذ رأته قد اشتعل رأسه شيباً ، ولكنه لم يكتف بهذا التصوير والتدبيج ، وكأني به أراد أن يجعلنا نشاهد منظر هذه الدموع وهي تتساقط ، فأضاف الوضع وقال إلى لؤلؤ العقد، وبذلك جعلنا نري الصورة رؤية كأنها حقيقية فالدموع تتناثر على لؤلؤ العقد وتختلط بحباته وألوانه (١).

والحق أن ابا تمام قد احسن في هذا الضرب احساناً يحسب له، احساناً ينسينا كثيراً من الشواهد التي درج الاستشهاد بها لهذا اللون وأمارات التكلف عليها واضحه إلى حد يكاد يظن معه أن ضرب الإدماج لايكون منه امثال هذه الصور المعبرة والبليغة ثم إن في القرآن الكريم شواهد لهذا الباب وتحتها اسرار ومعاني تجعل لهذا الضرب موقعاً في البلاغة على مامر ذكره .

وبعد أن وقفنا على الطباق ومايلحق به عند ابي تمام وكيف كان يستخدم هذا الضرب ومايميز طريقته فالحديث الآن إلى طائفة من الشعر مختلفة لما يستجاد ويحكم له من هذا الضرب ، ومايستقبح .

فمن جيد المقابلة قول الشاعر :

جزى الله خيرا ذات بعل تصدقت   على عزب حتى يكون له أهل
فانـــــا سنجيـــزها بمثـــــل   اذا ماتزوجنا وليس لها بعـل

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٢

وهذه ايضا مقابلة صحيحة ، لانه جعل في مقابلة أن تكون المرأة ذات بعل وهو لازوج له أن يكون ذا زوج وهي لابعل لها، وقابل حاجته وهو عزب بحاجتها وهي عزبة (١).

ومن جيد الطباق كذلك قول الحطيئة :

هم القوم الذين اذا الملت ... من الأيام مظلمة أضاءوا

فقد طابق بين الإظلام والإضاءة المفهومين من مظلمة واضاءوا ، وزاد من جودة سبكه أن المعنى قدتتطلب القافية ولم تفسد من أجله لأن ظلام الأيام يتطلب الاضاءة .

وقال الفرزدق يهجو بني كليب :

لعن الإله بني كليب أنهم ... لايغدرون ولايفون لجار
يستيقظون إلى نهاق حميرهم ... وتنام أعينهم عن الأوتار

وصفهم بالعجز والضعف والخيانه واشتغالهم بمحقرات الأمور.

وقوله : لايغدرون ليس مدحاً لأنه قرنه بقوله : ولايفون ، فدل نفي الوفاء عنهم على أن عدم الغدر إنما هو لعجزهم ولولا ذكره عدم الوفاء لكان مدحا، وهذا يسمى التكميل أو الأحتراس وهو أن يؤتي في كلام يوهم خلاف المقصود بما يرفعه ، كما أوقع الشاعر عدم الوفاء على حقوق الجار وهذا مبالغة في ذم بني كليب لأنهم اذا لم يفوا للجار شنيع في ذاته،وهذا المعنى إنما فهم من كلمة القافيه [لجار] وكأن المعنى قد تم بدونها فأفادت زيادة في المعنى. وهذا يسمى [الإيغال] وهو أن يؤتي في آخر البيت بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .

والطباق في البيت الثاني بين : يستيقظون وتنام .. يعني : ينامون عن المعالي ويشغلون أنفسهم فيما لافضل فيه .

ومن جيد مايعرف عندهم بطباق التدبيج قول الشاعر :

وتملك العلياء بالسعـي الــذي   أغناك عن متعالم الأنسـاب
ببياض عرض واحمرار صوارم   وسواد نقع واخضرار رحاب
وأفخر بعـم عم جـود نوالـه   وأب لأفعال الدنية آبـي [١].

ومما عابوه من الطباق قول المتنبي :

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها   سرور محب أو اساءة مجرم

يعني : أن الدنيا تطلب ويسعى لها من أجل هذين : ادخال السرور على الأحبه ، او الاساءة إلى الأعداء .

وأراد أن يطابق بين السرور والأساءة ، والمحب والمجرم ، فجاء صنيعه دون المستوى المطلوب .

فهو وان صح له مقابلة السرور بالأساءة ، فلا يصح مقابلة المحب بالمجرم ، لأن ضد المحب المبغض وليس المجرم .

وقال البحتري :

تشق عليه الريح كل عشية   جيوب الغمام بين بكر وأيم

طابق بين بكر وأيم ، وهذا عمل غير سليم ، لأن الأيم هي التي لازوج لها سواء كانت بكرا أو ثيبا ، فليست هي مقابلة للبكر، وإنما الذي يقابل البكر هي الثيب ولاتكون المرأة ثيبا الا بعد سبق الزواج [٢].

---

(١) معاهد التنصيص جـ ٢ ص ١٨٠ .
(٢) البديع من المعاني والألفاظ ص ١٨ ، ١٩

اهم المعايير التي يحتكم إليها في فساد المقابلات وصحتها

وهنا نسوق بشئ من التفصيل والإيضاح اهم المعايير التي يحتكم إليها في رد المطابقات والمقابلات .

ولقدامة بن جعفر في هذا الباب كلام جيد وتعليقات مفيده ، وقد نقل بن سنان الخفاجي كلاما منه بنصه كما كان للآمدي في اثناء تعليقاته على شعر ابي تمام وتعقبه لما رآه من معيب شعره كلام مهم .

يذكر قدامه بن جعفر أن من فساد المقابلات : [أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر إما على جهة الموافقة او المخالفة فيكون أحد المعنيين لايخالف الآخر ولايوافقه] .

مثال ذلك قول ابي على القرشي :

يا ابن خير الاخيار من عبد شمس   أنت زين الدنيا وغيث الجنود

فليس قوله وغيث الجنود موافقاً لقوله زين الدنيا ولا مضاداً وذلك عيب.

ومنه قول هذا الرجل في مثل ذلك :

رحماء لذي الصلاح وضرابون قدما لهامة الصنديد

فليس للضديد في ماتقدم ضد ولامثل ، ولعله لو كان مكان قوله الصنديد الشرير لكان جيداً لقوله ذي الصلاح (١).

ومما تصح به اساليب الطباق والمقابلات وتسلم به من العيب والرد تجنب التناقد والإيحاله .

وقد سبق الإشارة إلي أن التقابل يكون على اربع جهات ، اما بطريق

---

(١) نقد الشعر ص ١٩٣ ، ١٩٤

التضايف وهو الشئ الذي يقال بالقياس إلى غيره ، مثل الضعف بالقياس إلي نصفه ، والأب لابنه، والمولى لعبده، واما على طريق التضاد، مثل الأبيض والأسود والشرير والخير والنافع والضار، واما على طريق العدم والملكة ، كالأعمى والبصير والأصم والسميع، والأمرد وذي اللحية، وإما على طريق السلب والإيجاب .

فإذا ورد في الكلام جمع بين متقابلين من هذه المتقابلات من جهة واحدة فهو عيب في المعنى وفساد في المقابلة ، والمراد بالجهة الواحدة ألا يكون المتقابلان من جهتين، اى : باعتبارين ، فإنهما إذا كانا من جهتين لم يكن الكلام مستحيلا والتقابل حينئذ صحيح ومستقيم ومقبول ، مثال ذلك أن يقال : العشرة ضعف ونصف ، لكنها ضعف الخمسة ونصف العشرين ، فيكون هذا صحيحاً، لأنه تقابل من جهتين، فأما لو كان من جهة واحدة حتى يقال،إن العشرة ضعف الخمسة ونصفها ، لكان ذلك محالا، وكذلك يقال في المتقابلين بالعدم والملكه، زيد أعمى العين بصير القلب، فيكون ذلك صحيحاً ، فأما لو قيل – زيد أعمى العين بصير العين – كان ذلك محالا، وكذلك في التضاد أن يقال : الفاتر حار عند البرد وبادر بالقياس إلى الحار ولايكون حاراً بارداً عند احدهما، وزيد كريم بالطعام بخيل بالثياب ، ولايصح أن يقال كريم بالثياب بخيل بها .

وإذا كان هذا مفهوماً فالذي يقع في النظم والنثر من هذا التناقض على هذا النحو عيب في المعاني بغير شك، وإن كانوا قد تسمحوا في الشعر بأن يكون في البيت شئ وفي بيت آخر ماينقضه ، حتى يذم في بيت شئ من وجه ويمدح في بيت آخر من ذلك الوجه بعينه، وإنما أجازوا هذا لأنهم اعتقدوا أن كل بيت قائم بنفسه، فجرى البيتان مجرى قصيدتين ، فكما جاز للشاعر أن يناقض في قصيدتين كذلك جاز له أن يناقض في بيتين، ولم يختلفوا في أن البيت إذا ولي البيت وكان معنى كل واحد منهما متعلقا

بالآخر ، عدم الاتصال والتعلق، علي أن تجنب هذا في القصيدة وإن كانوا قد اجازوه احسن وأولى ، وقد قال ابو عثمان الجاحظ : إن العرب تمدح الشئ وتذمه، لكنهم لايمدحون الشئ من الوجه الذي يذمونه به (١).

فأما المتناقض في الشعر فكقول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصروا ... ملامكم فالقتل أعفى وأيسر

فقال هذا الشاعر - إن الهجر والقتل مثلان - ثم سلبهما ذلك ، فقال - إن القتل أعفى وأيسر - فكأنه قال : إن القتل مثل الهجر وليس هو مثله ، وذلك متناقض ، ولو كان استوى له أن يقول ، بل القتل أعفى وأيسر، لكان الشعر مستقيماً لأن لفظة [بل] تنفي الماضي وتثبت المستأنف ، كما قال زهير :

حي الديار التي لم يعفها القدم ... بلى وغيرها الأرواح والديم

على أنهم قد عابوا هذا البيت على زهير، لكنه بمجئ [بل] فيه لم يكن عندي فاسداً، وقد يمكن فيه من التأويل وجه آخر، وهو أن زهيراً قال : لم يعفها القدم وغيرتها الريح والأمطار، وليس ذلك بمتناقض ، لأن التغير دون أن تعفو ، والقدم غير الريح والمطر، ومن قال : لم يقتل زيد عمراً بل ضربه بكر لم يكن متناقضاً ، إنما المناقضة أن يقول - لم يقتل زيد عمراً وقتله زيد - ويكون الأول هو الثاني وهذا واضح (٢) .

واما مثل قول خفاف بن ندبة :

إذا انتكث الحبل ألفيته ... صبور الخبار رزينا خفيفا

فمما يقبل، لأنه لا إحاله معه ولا تناقض ، فلو لم يرد أنه رزين من حيث

---

(١) نقد الشعر ص ١٩٥ ، سر الفصاحة ص ٢٢٩ .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٣١ .

ليس هو خفيفا لم يكن سائغاً لعدم اختلاف الجهة حينئذ بما يفسد المعنى معه

وكذا قول الشنفري :

فدقت وجلت وأسكرت وأكملت   فلو جن إنسان من الحسن جنت

فإنه إنما اراد دقت من جهه وجلت من جهة أخرى ، فأما لو كان أراد أنها دقت من حيث جلت لم يكن جائزاً ،

وقد جاء في الشعر من الاستحالة والتناقض مالا عذر فيه، وماجمع فيه بين المتقابلات من جهة واحده ، ومنه ماالتناقض فيه ظاهر يعلم في اول مايلقي إلى السمع، ومنه مايحتاج إلى تنبيه على موضع التناقض .

ومما جاء من ذلك على جهة التضاد قول ابي نواس في الخمر:

كأن بقايا ماعنامن حبابها   تفاريق شيب في سواد عذار

فشبه حباب الكأس بالشيب وذلك قول جائز، لأن الحباب يشبه به في البياض وحده ، لافي شئ آخر غيره ، ثم قال :

تردت به ثم انفرى عن أديمها   تفري ليل عن بياض نهار

فالحباب الذي جعله في هذا البيت الثاني كالليل هو الذي كان في البيت الأول ابيض كالشيب، والخمر التي كانت في البيت الأول كسواد العذراء هي التي صارت في البيت الثاني كبياض النهار وليس في التناقض له منصرف إلى جهة من الجهات للعذر، لأن الأسود والأبيض طرفان متضادان ، وكل واحد منهما في غاية البعد عن الآخر ، فليس يجوز أن يكون شئ واحد يوصف بأ نه اسود وابيض إلا كما يوصف الادكن في الألوان بالقياس إلى واحد من الطرفين الذي هو واسطة بينهما، فيقال إنه عند الأبيض أسود .

ويجيب قدامة على من قد يوجهون كلام ابي نواس بما يخرجه عن باب الإحالة والرد .

يقول ابو الفرج قدامه : ولعل قوماً يحتجون لابي نواس بأن يقولوا إن قوله [تفري ليل عن بياض نهار] لم يرد به لا ابيض ولا اسود لكن الذي اراده إنما هو ذات التفري وانحسار الشئ عن الشئ اسود كان أو ابيض او غير ذلك من الألوان ، فنقول من يحتج بهذه الحجة تبطل من جهات .

إحداها : أن الرجل قد صرح بأنه لم يرد غير اللون فقط بقوله عن بياض نهار.

الثانيه : تشبيهه الحباب لايشبه الشيب من جهة من الجهات غير البياض .

الثالثه : أن الليل والنهار ليس هما غير الظلمة والضياء فيظن بالجاعل لهما في وصف من الأوصاف أنه اراد شيئا آخر، فإن القائل مثلا في شئ قد يتبرأ من شئ كما تتبرأ الشعرة من العجين .

وقد يجوز ان يصرف قوله هذا على وجهين :

احداهما أن يظن أنه اراد تبرئ الأسود من الأبيض لأن في الشعرة والعجين جسما يجوز ان يتبرأ من جسم وسواداً وبياضاً ، فأما الليل والنهار فليس هما غير سواد وبياض فقط، فأما جسم يتبرأ من جسم فلا .

ومما جاء من الشعر في التناقض على طريق المضاف قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

فإني اذا ما الموت حل بنفسها   يزال بنفسي قبل ذاك فأقبر

فقد جمع بين قبل وبعد وهما من المضاف لأنه لاقبل إلا لبعد، ولابعد إلا

لقبل حيث قال : إنه اذا وقع الموت بها وهذا القول كأنه شرط وصفة ليكون له جواب يأتي به وجوابه قوله : [يزال بنفسه] قبل ذلك ، وهذا شبيه بقول هذا الشاعر جعل ماهو قبل بعداً .

ومما جاء في الشعر متقابلا على وجه الملكه والعدم قول ابن نوفل :

لأعلاج ثمانية وشيخ　　　　كبير السن ليس بذي ضرير

فلفظة ضرير إنما تستعمل وهي تصريف فعيل من الضر في الأكثر فيمن لا بصر له .

وقول هذا الشاعر : إنه نو بصر وإنه ضرير تناقض من جهة الملكة والعدم ، وذلك أنه يقول : إن له بصراً ولا بصر له فهو بصير أعمى .

ولايقال : إنه [ضرير] راجع إلى البصر بأنه اعمى، لأن العرب إنما تريد بضرير الإنسان الذي قد لحقه الضر بذهاب بصره لا البصر نفسه ، وايضا فليس البصر: العين التي يقع عليها العمى ، بل ذات الإبصار، وذات الإبصار لايقال لها عمياء ، كما لايقال : إن حدة السيف كليلة ، بل يقال: السيف كليل لأن الحدة لاتكل ، وكذا البصر لايعمى ولكنه في توسع اللغة وتسمح العرب في اللفظ جائز على طريق المجاز، وقد جاء في اقوى المواضع حجة وهو القرآن في قوله عز وجل ﴿ **فإنها لاتعمى الأبصار** ﴾ ولكنه إذا جاز في البصر أن يقال اعمى فلا أراه أن يقال فيه مضرور.

ويرى قدامة بن جعفر دخول قول ابن هرمة في باب المتناقض الذي لايسوغ :

تراه إذا ماأبصر الضيف كلبه　　　　يكلمه من حبه وهو اعجم

فإن هذا الشاعر اقنى الكلب الكلام في قوله يكلمه ثم اعدمه إياه عند قوله وهو اعجم من غير أن يزيد في القول مايدل على أن ماذكره إنما

اجراه على طريق الاستعارة فإن عذر هذا الشاعر ببعض المعاذير إذا كانت الحجج كثيره [١] .

غير أن ماذهب إليه أبو الفرج ورآه لم يسلم له ، فقد تعقبه ابن سنان الخفاجي وخطئه .

يقول ابن سنان : [وهذا غلط من ابي الفرج طريف، لأن الأعجم ليس هو الذي قد عدم الكلام جملة كالأخرس ، وإنما هو الذي يتكلم بعجمة ولا يفصح قال الله تبارك وتعالى : [لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين] وإذا قيل - فلان يتكلم وهو أعجم - لم يكن ذلك متناقضاً، على ان الرواية الصحيحة في بيت ابن هرمة :

يكاد إذا ماأبصر الضيف مقبلا

وهذا البيت من إحسان ابن هرمة المشهور [٢].

كما ذهب الآمدي إلى تناقض ابي تمام في بيته في وصف الفرس:

وبشعلة تبدوا كأن فلولها　　في صهوتيه بدو شيب المفرق

مسود شطر مثل ماasود الدجي　　مبيض شطر كابيضاض المهرق

قال : لأنه ذكر في البيت الأول أنه اشعل، ثم قال في الثاني:إن نصفه اسود ونصفه ابيض وذلك هو الأبلق، فكيف يكون فرس واحد أشعل ابلق؟[٣]

وهذا من ابي القاسم تحامل على ابي تمام مثلما تحامل عليه في اكثر من موضع مما يمكن أن يلتمس معه لابي تمام وجه يخرج عليه ماقال ، وماقصد وأبو تمام هنا قصد إلى وصف فرس اشعل، ويريد بقوله :

---

(١) نقد الشعر ص ١٩٩ .　　(٢) سر الفصاحة ص ٢٣٢ .

(٣ الموازنه ص ٣ .

إنه مسود شطر ومبيض شطر : إن سواده وبياضه متكافئان ، فلو جمع السواد لكان نصفه، وكذلك البياض وهذا الوصف من تكافؤ السواد والبياض في الأشعل محمود، حتى إن النخاسين يقولون : أشعل شعرة شعرة ، فعلى هذا لايكون شعر ابي تمام من المتناقض .

وأما قول ابي عبادة البحتري :

لما مدحتك وافاني نداك على   اضعاف ظني فلم اظفر ولم اخب

فليس هذا من المتناقض ، لأنه من جهتين على ماذكرناه ، فيما تقدم ، ألا ترى إن معناه لم اظفر بنفس ماظننته ، لأنك زدت عليه فكأن ظني لم يصدق، لأنه لو صدق لكان وقع على ماظننته بعينه ، من غير زيادة عليه ، ولم اخب لأنك قد اعطيتني، ومن اعطى فما خاب وهذا صحيح واضح[١].

وقد فرق ابو الفرج بين المستحيل والمتناقض، المرفوض والمردود، وبين الممتنع الذي يمكن أن يقال به ويلتمس له وجه في القبول بأن المستحيل هو الذي لايمكن وجوده ولا تصوره في الوهم مثل كون الشئ اسود ابيض وطالعا نازلا فإن هذا لايمكن وجوده ولاتصوره في الوهم ، والممتنع هو الذي يمكن تصوره في الوهم وإن كان لايمكن وجوده، وقد يصح أن يقع الممتنع في النظم والنثر على وجه المبالغة ولا يجوز أن يقع المستحيل البتة[٢]

هذا مايسر الله تعالى ووفق إليه ، فله الحمد في الأولى والآخرة .

والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله والتابعين إلى يوم الدين .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٣٥ .

(٢) نقد الشعر ص ٢٠١ .



المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- ابن المعتز – وتراثه في الأدب والنقد والبيان ومعه كتاب البديع د/ محمد عبد المنعم خفاجي – دار العهد الجديد للطباعة – بدون تاريخ

٢ – الأربعون النووية وشرحها للنووي .

٣- اسباب النزول للسيوطي – ط / مكتبة نصير / بدون تاريخ

٤- اسرار التكرار في القرآن – للكرماني – دراسة وتحقيق / عبد القادر احمد عطا

٥- الاتقان في علوم القرآن – للسيوطي – ط / دار الفكر – بدون تاريخ

٦- الاشارات والتنبيهات – لمحمد بن على الجرجاني- تحقيق د/ عبد القادر حسين ط / نهضة مصر – ١٩٨٢م

٧- الإيضاح للخطيب القزويني- مطبعة صبيح . ١٣٩٠هـ – ١٩٧١م

٨- بدائع الفوائد، – ابن قيم الجوزية – دار الفكر للطباعة – بدون تاريخ

٩- بديع القرآن – لابن ابي الأصبع ، تحقيق د. حفني محمد شرف ط / نهضة مصر / الطبعة الثانية / بدون تاريخ

١٠- بغية الإيضاح – للشيخ . عبد المتعال الصعيدي . / الناشر مكتبة الأداب الطبعة السادسة ، بدون تاريخ .

١١- البرهان في علوم القرآن – للإمام / بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي – دار المعرفة – بيروت – لبنان – بدون تاريخ .

١٢- البديع في نقد الشعر – لاسامه بن منقذ ، تحقيق د / احمد احمد بدوي د / حامد عبد المجيد – ط / مصطفى الحلبي – ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م

١٣ – البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري – د/ محمد محمد ابو

موسى / ط / دار الفكر - بدون تاريخ
١٤- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها- احمد مصطفى المراغي - ط / مصطفى الحلبي- الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
١٥- تأويل مشكل القرآن - لابن قتيبة - تحقيق/ السيد احمد صقر - ط / دار التراث/ الطبعة الثانية - ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
١٦- تفسير البحر المحيط - لابن حيان الأندلسي - ط دار الفكر بيروت - بدون تاريخ .
١٧- تفسير جزء عم - للشيخ / محمد عبده - المطبعة الأميرية - الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ .
١٨- تفسير ابي السعود- المسمى ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم الناشر/ عبد الرحمن محمد ،، بدون تاريخ .
١٩- التبيان في اقسام القرآن لابن القيم - ط/ المتنبي
٢٠- تفسير التحرير والتنوير - للطاهر بن عاشور -. ط دار التونسيه للنشر بدون تاريخ .
٢١- تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن بن جرير الطبري ط دار الريان للتراث - بدون تاريخ .
٢٢- التطور والتجديد في الشعر الأموي - د/ شوقي ضيف- دار المعارف.
٢٣ - التفسيرالكبير-للفخرالرازي- ط/ دارالفكر- بيروت - بدون تاريخ .
٢٤ - التفسير البياني للقرآن الكريم - د / عائشة عبد الرحمن ط/ دار المعارف - بدون تاريخ .
٢٥ - الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي . ط/ دار الشام للتراث/ بيروت / بدون تاريخ .
٢٦- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي - دارصادربيروت - بدون تاريخ .
٢٧- حاشية المرشدي -- وبهامشها - شرح عقود الجمان - للشيخ /

جلال الدين السيوطي – ط/ مصطفى الحلبي الطبعة الثانية – ٣٧٤هـ – ١٩٥٥م .

٢٨ – الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة ابي تمام – د/ عبد الفتاح لاشين ط/ دار المعارف ، بدون تاريخ .

٢٩ – درة التنزيل وغرة التأويل ، للخطيب الاسكافي / دار الافاق الجديدة بيروت– الطبعة الرابعة – ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

٣٠ – دلائل الإعجاز– للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق د/ عبد المنعم خفاجي . مكتبة القاهره – ١٩٦٩م – ١٣٨٩هـ .

٣١ – دلائل الإعجاز بين ابي سعيد السيرافي– وعبد القاهر الجرجـاني – د / حسن اسماعيل عبد الرازق ط/ دار الطباعة المحمدية – الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٣٢ دليل الفالحين – لطرق رياض الصالحين ، لابن علان ، دار الريان للتراث، بدون تاريخ .

٣٣– ديوان المتنبي– شرح / عبد الرحمن البرقوقي – ط / المطبعة الرحمانية بمصر – ١٣٤٨هـ – ١٩٣٠ م .

٣٤ – روح المعاني للألوسي – ط / دار الفكر – بيروت – بدون تاريخ .

٣٥–سر الفصاحة – بن سنان الخفاجي الحلبي شرح وتصحيح / عبد المتعال الصعيدي ط/ مكتبة ومطبعة محمد على صبيح – بدون تاريخ .

٣٦– الصبغ البديع عند العرب – د / احمد موسي – الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر –. ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م .

٣٧– الصور ألبديعية بين النظرية والتطبيق– د/ حفني شرف – ط / دار نهضة مصر ، بدون تاريخ .

٣٨ – علوم القرآن – لابن قيم الجوزية – ط مكتبة المتنبي– القاهرة – بدون تاريخ .

٣ – العمدة – لبن رشيق – تحقيق الشيخ / محمد محيي الدين عبد الحميد – ط / دار الجيل– بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

٤٠- فن البديع / د/ عبد القادر حسين ط / دار الشروق .
٤١- الفن ومذاهبه في الشعر العربي - د/ شوقي ضيف- ط دار المعارف.
٤٢- الفن ومذاهبه في النثر العربي / د/ شوقي ضيف . ط دار المعارف.
٤٣- قراءة في الأدب القديم - د/ محمد ابو موسى ط / الخانجي .
٤٤- الكشاف- للزمخشري- ط / تهران - بدون تاريخ .
٤٥- لسان العرب، لبن منظور- ط / دار المعارف - بدون تاريخ .
٤٦- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ / عبد الرحيم العباسي تعليق الشيخ / محمدمحيي الدين عبد الحميد ط / عالم الكتب بيروت ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م .
٤٧- معترك الاقران في اعجاز القرآن للسيوطي ط/ دار الفكر العربي بدون تاريخ .
٤٨- معجم آيات القرآن الكريم - محمد منير الدمشقي. ط/ التراث الاسلامي- بدون تاريخ .
٤٩ - مفتاح العلوم - للسكاكي. ط/ مصطفى الحلبي ودار الكتب العلمية [بيروت] - الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م .
٥٠- المفردات في غريب القرآن - لابي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني- مطبعة مصطفى الحلبي/ بدون تاريخ .
٥١ - المثل السائر - لضياء الدين بن الاثير تحقيق د/ احمد الحوفي ط/ نهضة مصر - الطبعة الثانية - بدون تاريخ .
٥٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - فؤاد عبد الباقي مطابع الشعب ١٣٧٨هـ .
٥٣- نقد الشعر - قدامة بن جعفر - تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي - الناشر/ مكتبة الكليات الازهرية - الطبعة الأولى - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

تم بحمد الله

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

دليل الكتاب

قوله تعالى : [**والضحى والليل اذا سجى . ماودعك ربك وماقلى. وللآخرة خير لك من الأولى**] . مجئ الليل هنا منبداً لفظاً في مقابلة الضحى لكونه مقيداً معنى ، مناسبة هذا الطباق المعنى والغرض المسوق له الكلام .

٢٨ الطباق بين الآخره والأولى مع تقديم الآخرة على الأولى ملائمة لخصوص المعنى والغرض .

قوله تعالى : [**والشياطين كل بناء غواص**] دلالة مجئ طرفي المطابقه علي صيغة المبالغه .قوله : ﷺ « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها اوصاني بالإخلاص في السر والعلن .. » الحديث الشريف . من بلاغه مطابقات

٣٠ الحديث الشريف تعليق كل منها بلفظ هو اخص بها معنى .

من شواهد هذا الضرب شعراً لكثير وبن المعتز :

في الأفعال :

قوله تعالى : [**ثم إني اعلنت لم واسررت لهم اسرارا**] بلاغة المطابقة بالجمع بين الاعلان والاسرار، تقديم الإعلان على الأسرار، موقع [ثم] في هذا السياق من الآية الكريمة ، قوله تعالى : [**وأنه هو اضحك وابكى وأنه هو امات واحيا**] المراد بالضحك والبكاء بما يلائم الطباق بين الإماته

٣١ والإحياء .

قوله تعالى : [**وهو الذي يحيي ويميت ..**] ايثار التعبير عن طرفي

٣٢ الطباق هنا بصياغة المضارع مع تقديم الضمير العائد عليه تعالى .

قد يقتضى الحال والغرض المزاوجه في التعبير عن طرفي المطابقه ، قوله تعالى : [**ياأيها النبي لم تحرم ماأحل الله لك..**] ماوراء ايثار صياغة فعل التحريم على المضارع وفعل الحل على المضي مع تصدير النظم الكريم

٣٣ بالاستفهام المؤذن بتمام الترفق في الخطاب قوله تعالى : [**وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم**] المغايرة بين طرفي المطابقة فالإماته والإحياء الأول، ثم المخالفه بمجئ طرفي المطابقه على صيغة المضارع في الإماته

والإحياء الثاني .

قوله تعالى : [ماعندكم ينفد وماعند الله باق] ماوراء إيثار المخالفه بين طرفي المطابقه هنا بمجئ فعل النفاد فيما عند العباد بطريق المضارعه على حين ورد امر البقاء فيما عند الله تعالى على صياغة الاسم . ٣٤

من ذلك الضرب الذي سلك فيه طريق المزاوجه في التعبير بين طرفي المطابقات خطبه للإمام علي كرم الله وجهه: [الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا]

من شواهد هذا الطريق شعراً :

ورود المطابقة وطرفاها فعلا امر: قوله تعالى : [**فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف**] وقوله تعالى : [**ياايها المزمل قم الليل إلا قليل نصفه او انقص من قليلا او زد عليه ..**] قوله تعالى : [**فامنن او امسك بغير حساب**] مايؤذن به التعبير في مثل هذه السياقات بصياغه الأمر مع طرفي المطابقات.جريان المطابقات بين الحروف بملاحظة معنى التقابل بين الحروف تبعاً لمعاني الكلام واغراضه، قوله تعالى : [سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى] ، وقوله تعالى [لها ماكسبت وعليها ماكتسبت] ، ايثار التعبير بفعل الكسب في جانب الخبر وبفعل الاكتساب في جانب ماهو على خـلاف ذلك ، مايؤثـر عنـه ﷺ [النظرة الأولى لك والثانيه عليك] ٣٥

من مشهور مايستشهدون به لهذا الضرب شعرا ٣٧

الطباق من حيث الإيجاب والسلب

المراد بطباق الإيجاب والسلب

الطباق كما يكون طرفاه موجبين يكون طرفاه سالبين نفياً او نهياً . قوله تعالى : [**لم يلد ولم يولد**] مجئ المطابقه على هذا الطريق من نفي كلا الطرفين فيه إيضاح وتقرير لمعنى الوحدانية الخالصة لله تعالى لعدم تصور إمكان جريان الحالين على احد آخر، قوله تعالى : [**لاشرقيه ولاغربيه**]

قوله تعالى : [ثم لايموت فيها ولايحيى] وكيف يفهم المعنى مع نفي الأمرين جميعا . قوله تعالى : [ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط] مآل المعنى في الآية الكريمة إلى النهي عن كل من البخل والاسراف مع مجيء الغرض في معرض من التصوير بديع ، الطباق في قوله تعالى : [والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا] تصريح بالمفهوم من الطباق السابق. ٣٩

طباق الإيجاب والسلب :

ما يتحقق هذا الضرب ، مايذكره الخطيب في هذا لشأن غير مسلم لورود الاستعمال على خلافه ، سبق ابي هلال بالحد الأعدل، نماذج مختلفه من القرآن الكريم ومن الشعر تصحيح جريان هذا الضرب مع الأسماء كذلك . ٤٠

الحقيقي والمجازي

المراد بالطباق الحقيقي والطباق المجازي، لايشترط في الطباق اشتراك الطرفين في وصف الحقيقة او المجاز .

قوله تعالى : [او من كان ميتا فاحييناه] طباق بين معنى الكفر والضلال وبين الإيمان والهداية قوله تعالى : [منها قائم وحصيد]طباق مصور للمعنى ، ماوراء خصوص التعبير بلفظ [قائم] على تلك الصياغه وبلفظ حصيد ايضاً . ٤٣

من مشتهر مايدخل في هذا الضرب شعرا

الطباق من حيث الظهور والخفاء

مايعني بالظهور والخفاء في هذا الباب، ايضاح ونماذج اللفظي والمعنوي ٤٥

اللفظي والمعنوي :

مايعنون بالطباق اللفظي والطباق المعنوي، ايضاح ونماذج قرآناً وشعرا ٤٦

ايهام التضاد :

من ملحقات الطباق: ايهام التضاد، المراد به ، نماذج له : ٤٩

التدبيج

بما يتحقق هذا اللون ، مايختصوا به دون الطباق بما يسوغ إفراده بحديث

إيضاح لبلاغة هذا الضرب وتحليل له من القرآن الكريم والحديث الشريف والمنثور والمنظوم .

التدبيج لايخرجه شرطه ، عن باب الطباق اصلاً ، تعقيب على مايذكره ابن ابي الأصبع من نسبه ابتكار هذا الضرب إليه ٥٠

ترشيح المطابقة بألوان بلاغيه اخرى :

المقابلة

المقابلة تعريف بها وتفريق بينها وبين الطباق، بنماذج من الكتاب العزيز والسنه المشرفة ، والشعر . ٥٦

صور المقابلة

مايلحظ من قيام صور هذا الضرب على الاعتبار العددي في ذاته لايعد الاصل الذي تبني عليه بلاغة المقابلات .

مقابلة اثنين باثنين : قوله تعالى [**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع**] ، ماوراء ايثار التعبير عن الحالين بهذا الاسلوب من المقابلة مع ذكر العمي والصم اولا ثم ذكر البصر والسمع من بعد دون مقابله كل من الضدين بالآخر من اول الأمر ، وقوله ﷺ : [انك لتكثرون عن الفزع] الحديث كيف قامت هذه المقابلة بأداء معنى الثناء على الانصار وفي تقديم الكثرة عند الفزَع ملائمة لهذا المدح والثناء، من شواهد هذه الصورة نثرا وشعرا. ٦١

مقابله ثلاثه بثلاثه :

شواهد لهذه الصوره شعراً، ابن رشيق يذكر ان للمقابله ضرباً تقابل فيه الكلمتان بالثلاث، عرض لكلامه وشاهده ايضاح وتحليل لذلك بما يعود به إلى مقابلة اثنين باثنين . ٦٣

مقابله اربعه باربعه :

قوله تعالى : [**فأما من اعطى واتقى**] الآيتان .   ٦٥

مقابله خمسه بخمسه :

من شواهدهم لهذا شعراً

مقابلة ست بست :

قوله تعالى : [**زين للناس حب الشهوات من النساء**] الآيتان مايذكرونه شاهداً لهذه الصوره شعرا على شئ غير قليل من التكلف مع تحري المعنى والغرض .   ٦٥

المقابلة الخفيه :

ماتكون به المقابلة الخفيه ، قوله تعالى : [**وأن لك أن لاتجوع فيها ولاتعرى وأنك لاتظمأ فيها ولاتضحى**] من اكمل وابلغ المقابلات مع تحري المعنى والغرض .   ٦٦

العكس والتبديل :

مايتحقق به هذا الضرب ، شواهد له من النظم القرآني توضح بلاغة هذا الطريق وترد على من حكم على هذا الضرب بالتحسين اللفظي قوله تعالى : [**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**] . ، قوله تعالى : [**هن لباس لكم وانتم لباس لهن**] ،[**ماعليك من حسابهم من شيء ومامن حسابك عليهم من شيء**] [**الطيبات للطيبون والطيبون للطيبات والخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات**] ..   ٦٧

وقوله تعالى : [**يايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً**] ماوراء المخالفة بين كل من التركيب المعطوف والمعطوف عليه على طريق العكس والتبديل ، بيان أن تمام الغرض لايكون بإفراد احد التركيبين بذكر، قوله تعالى : [**يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي**] ايضاح كيف أن سلك

القسم الثاني

الطباق والمقابلة تطبيق وتحليل

٨٤ كلام كثير في هذا الشأن لايخلوا اكثره من بعدا وتكلف .

قوله تعالى : [ضعف الطالب والمطلوب] بيان كيف أن هذه المطابقة بين اسم الفاعل والمفعول تحقق تمام الغرض في سلب امتلاك تلك المعبودات الآثمه شيئاً من امر غيرها او نفسها وتسفيه عقول عبادها . ٨٧

قوله تعالى : [ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك] ماتفيده هذه المطابقه بالجمع بين وضع الوزر ورفع الذكر على صياغة المضي مع اضافة الذكر المرفوع إلى الضمير العائد عليه ﷺ وذكر لفظ [عنك] في جانب الوزر ولفظ [لك] في جانب الذكر وتقديم فعل الوضع على فعل الرفع من تمام معنى الامتنان والإنعام . ٨٨

قوله تعالى : [فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا] ذكر طباق اليسر مع العسر مرتين مع تعريف العسر وتنكير اليسر وايثار لفظ [مع] الزمخشري يلحظ ماوراء ذلك من مغزى ورمز . ٩٠

قوله تعالى : [فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة] مايلحظ من مغايرة في صياغه طرفي المطابقة في امثال هذا السياق مع اسناد فعل الهداية إلى الضمير العائد على الحق تعالى دون امر الضلال هنا . ٩٢

قوله تعالى : [قال سننظر أُصدقت ام كنت من الكاذبين] ماتشير إليه المغايره بين طرفي المطابقة في هذا السياق الكريم ايضا .

قوله تعالى : [يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون] المطابقه بين فيقتلون بالبناء للمعلوم ويقتلون بالبناء للمجهول تشير إلى معنى يلائم سياق الكلام والغرض منه كيف ان تصدير النظم الكريم بفعل الشراء على المضي مسنداً إليه تعالى من وراءه مغزى ومعنى جليل كذلك . ٩٣

من مشتبه الطباق بين مضارعين :

قوله تعالى [ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره] كيف يفهم جريان الحالين المقادين من المطابقة هنا على واحد مع كون ظاهر النسق لغير واحد. ، ٩٥ قوله تعالى : [فإذا جاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون] فهم عدم التعارض الذي يوهمه الظاهر بالجمع بين استقدام الأجل واستئخاره وكذا

الإحاله بطلب الإستقدام ومفاد تقديم طلب الاستنخار، مايلحظ من إنفراد موقع يونس بعدم مصاحبة [إذا] للفاء على خلاف المواقع الأخرى الوارد معها نظير هذا التركيب .

٩٦

قوله تعالى : [يمحو الله مايشاء ويثبت] الطباق بالجمع بين المحو والإثبات على صياغه المضارع مع الإسناد إلى لفظ الجلالة ولضمير العائد إليه تعالى يحقق معنى تمام القدره الإلهيه وكمال الاراده والتصرف في شئون الكون والكائنات .

٩٨

الطباق المحذوف احد طرفيه :

قد يكتفي في مطابقات القرآن الكريم بأحد طرفي المطابقات

٩٩

قوله تعالى : [وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب] حذف طرف المطابقة الأول في هذا التركيب ايجاز بليغ، قوله تعالى: [هذان خصمان حتى قوله : [وهدوا إلى صراط الحميد] ايضاح مافي الآيات من مقابلات بين حالي فريق الكفر والنار وبين فريق الإيمان والجنه مع افراد فريق الإيمان بما لامقابل له مع فريق الكفر .

١٠٠

في متشابه النظم القرآني

مجئ مطابقات كثر دورانها في الكتاب العزيز مع اختلاف في التركيب أو الصياغه او المتعلق .

بين السر ومافي معناه والعلن ، قوله تعالى: [وإن ربك لايعلم ماتكن صدروهم ومايعلنون] التعبير بخصوص مادة الكن مع التقديم على فعل العلن وصياغه الفعلين على طريق المضارع .

١٠٢

الغالب في عرف الاستعمال القرآني تقديم مافيه معنى الخفاء على مافيه معنى الجهر حيث يجمع بينهما في طباق ، الحكمة البيانية لذلك مع رد الأمر إلى خصوص السياقات، تقديم مافي معنى العلن في قوله تعالى : [واعلم ماتبدون وماتكتمون] لكونه الأنسب بخصوص سياقه تقديم لفظ السر على العلن في قوله تعالى : [الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ..]

تم بحمد الله

رقم الايداع ١٠٠٤٩ / ١٩٩١
I S B N 977-5101-32-8